إلى كاراكاس... بلا عودة

محمد ديريه



إلى كاراكاس... بلا عودة

محمد ديريه

الكتاب: **إلى كاراكاس... بلا عودة**

المؤلف: **محمد ديريه**

التصنيف: **سرديات - قصص قصيرة**

الناشر: **مدارك إبداع، نشر، ترجمة وتعريب**

الطبعة الأولى: يونيو (حزيران) 2011

الرقم الدولي المتسلسل للكتاب: ISBN 978-9953-566-48-1

صورة الغلاف: لوحه للفنان عبدالعظيم الضامن

تصميم الغلاف: أحمد عصام السلمي

الكتاب متوفر على الإنترنت:
مكتبة نيل وفرات.
www.nwf.com



Tel.: 009611282075 - Fax: 009611282074
Gharios Center. Forn Elchebbak. Beirut - Lebanon
www.mdrek.com - read@mdrek.com
P. O. Box: 50074 Forn Elchebbak - Lebanon
سنتر غاريوس، الطابق الرابع، فرن الشباك، بيروت - لبنان

إهداء

إلى أمي التي رافقتني سنين الرمد...

إلى الوطن البعيد...

وإلى أصدقائي... وأحبابي من الخليج إلى المحيط

لكم السرديات... ولي القصص الأخيرة...

لا تسألوني كيف...

هكذا حلمت أمي البارحة!

أنا أحبكم...

أحبكم كثيراً يا أصدقائي

محمد

المحتويات

السرديات

القصص القصيرة

السرديات

إلى كاراكاس بلا عودة

الشيء الوحيد الذي لن تعلم به زوجتي، حتى بعد إنجاب طفلنا الثالث، هو أن السفر إلى كاراكاس بلا عودة سيبقى حلمي الكبير إذا لم تتحرر القدس في عام 2035.

ولا شيء يجبرني على البوح لكم بسبب اختياري لهذه المدينة الرائعة دون مثيلاتها من عواصم أمريكا اللاتينية النابضة بالحياة. يكفي أن تعرفوا أنها تسمح لنا بزيارتها من دون تأشيرة سفر بخلاف مواطني أمريكا العظمى. ولأنها العاصمة الوحيدة في العالم التي يتعذر فيها تصوير أي حلقة تلفزيونية مباشرة لقناة «الجزيرة»، وذلك لطبيعة الملابس الثورية التي يقاوم بها الفنزويليون درجات الرطوبة العالية. وثالثاً، لأنه يوجد صراف لبينك الراجحي هناك!

لكن زلزالاً أصاب شرق فنزويلا الأسبوع الماضي أجبرني على إعادة ترتيب أحلامي من جديد!

فبالطبع لن تكون نهاية جميلة أن تترك كل شيء خلفك، لتصبح رقماً في زلزال دام لنصف دقيقة وحصد الآلاف معه.

وبالمقابل أخبروني أيها الأحياء:

هل بإمكان أحدنا أن يختار النهاية التي تليق به؟!

إنني أحسد الرجال الذين يجلسون على شرفة الأربعين هذه الأيام. ففي السبعينات كانت هناك الكثير من حركات التحرير في العالم، وكان الناس يحترمون القيَم والأفكار أكثر من اليوم.

وفي الثمانينات كان الآلاف من العرب يذهبون للقتال في كل مكان، كان الشاب يودّع والديه وهو يعلم بأنه قد لا يعود، ويحضنهم وهو يرى طيفه عائداً من القتال مبتور الساق أو مقطوع اليد مقابل فكرة اقتنع بها أو قضية مشى إليها برجليه، لكنه كان يوقن بأن الحياة بلا قضية تضحي من أجلها... هي نصف حياة.

على أبواب القرن الحادي والعشرين يجب أن نعترف بأن أيامنا غدت كئيبةً مملّةً رتيبةً لا ينقصها شيء، إننا ملوَّثون بآلاف المعلومات التي لا نحتاجها، ومجبرون على اقتناء عديد الأجهزة فقط لنساير الآخرين، ومضطرون لأن نبقى طول اليوم على «الماسينجر» أو «الفيس بوك» On Line حتى لا يفتقدنا الآخرون، أولئك الذين قد لا يعرفون وجوهنا حتى في صف طويل أمام عيادة طبيب الأسنان!

إننا نستيقظ على آلاف القتلى في هاييتي بينما نتشبث بالحياة أكثر.

الإحصاءات الأخيرة تتحدث عن سبعين ألفاً قضوا في دقيقة واحدة، والرئيس يؤكد على أن القتلى لن يكونوا بأقل من مائتي ألف في كل الأحوال.

الولايات المتحدة تسيطر على المطار في الحال، والقصير ساركوزي يشتكي لمجلس الأمن مطالباً بتوضيح طبيعة عمل الولايات المتحدة الأمريكية في هاييتي. هل جاءت لتنقذ المنكوبين أم جاءت لتثبت أقدامها وتحتل هاييتي؟ لو كنت هناك لسألته عن طبيعة عمل جنوده أيضاً في أفغانستان... وحتى في جيبوتي التي تعتاش على قاعدته الحربية هناك!

من المضحك أن تصبح كل الأشياء في يد أمريكا... حتى الطبيعة التي نحبها... تغضب دقيقةً واحدة... لتهدي أمريكا موقعاً استراتيجياً جديداً لعشرات السنين القادمة!

تذكرت حسرة الرجل النبيل سعود الفيصل وهو يصرح قبل أسابيع بأنه لم يرَ شيئاً يبعث على التفاؤل منذ ثلاثة عقود، ويتساءل عن راحة البال وهو يشاهد الفلسطينيين على المعابر ويرى إسرائيل تعبث كالطفل المدلل في المنطقة.

يؤلمني كرجل مسلم أن أستيقظ كل صباح لأقرأ على شريط الأخبار أن أمريكا ضربت وزيرستان للمرة السادسة بطائرة بلا طيار، وأنها استباحت أرض اليمن بنفس الطائرات لتضرب «فلول القاعدة» على حد تعبير الأخ الرئيس اليمني، وأمريكا المغلوبة على أمرها لا تعلم أن الأخ الرئيس يعطيها أسماء رجال «الحراك الجنوبي» ويهدد كل من يتحرك ضده ويرفض توريثه للحكم بأن يضع اسمه على لائحة الفلول أعلاه... لتقصفه طائرات العم سام... وبدون طيار... حتى يضيع دمه في الجو... فتحتار القبائل العربية في ثأر رجالها!!

وعلى ذكر القبائل العربية، أعجبني كثيراً حديث الفتاة الإيرلندية المنضمة لقافلة شريان الحياة وهي تتحدث للرائع غسان بن جدو عن الفرق بين النظام المصري والشعب المصري العظيم.

تقول:

لقد ضربنا رجال الأمن المصري طوال اليوم، بينما كان أهل العريش يأتون لتقديم الاعتذار والطعام لنا طول المساء... لقد أكرمونا... وتعاطفوا كثيراً معنا.

لقد أنجز المصريون ستة كيلومترات من «الجدار الواطي» كما سماه حمدي قنديل في أسبوع واحد، بينما كان أهل غزة الشرفاء يجمعون التبرعات الرمزية لضحايا زلزال هاييتي.

الفلسطينيون شعب ساخر من الحياة برمتها، إنهم يواجهون الرصاص بصدور عارية وسواعد لا تمتلك غير حجارة الرصيف المكسور.

ها هم يسخرون من الحصار العربي الجبان بطريقتهم، يقدمون أجود أكياس الطحين المهرَّب بواسطة الأنفاق لمندوب الأمم المتحدة في غزة، والذي وعدهم بأن تصل إلى الضحايا هناك... إنهم يمشون في «جنازة الرجل الذي لم يعرفوه» كما قال أخوهم محمود درويش!

سيخطب إمام مسجدنا الجمعة القادم عن عقوبة الزلزال التي أنزلها الجبار بأهل هاييتي، وسيطبع بعض المعلومات من موقعٍ «ويكيبديا» ليقنع جموع المصلين بأنها لا تعدو أن تكون مرفأً للسكارى والملحدين الذين لا يرجون لله وقاراً، وأن الزلزال كـ«سيل جدة»، شيء من غضب الرحمن وسخطه على فجور العباد، ويتناسى -حفظه الله- أن أمريكا التي تنقذ الهايتيين الآن تحتل العراق وأفغانستان، وتحوم في الجو بلا طيار لتقتنصه لو شاءت بعد الصلاة مباشرة.

بينما تنعم هي بالأمن والاستقرار، ويسافر مواطنوها كالشعر الغجري المجنون في كل الدنيا على حد تعبير نزار قباني!

إن الابتلاء بالأمن والأمان والتوحيد والجلوس على نفط الدنيا -ولله الحمد- هو ابتلاء يوازي فقر أفريقيا وكوارث أمريكا الجنوبية وأمراض الهند وازدحام الصين.

إن الأم التي تبكي في هاييتي لأن طفلها تحت الأنقاض تخضع لابتلاء يوازي الابتلاء الذي تخضع له أم قطرية تتبضع في الشانزلزيه، وتفكر في إرسال ابنتها للدراسة في أكسفورد على حساب الدولة!

صديقي الذي يعمل نقيباً في سلاح الجو اتصل بي قبل أسبوع ليخبرني عن تفاصيل حلمه الأخير: لقد أعطاه الأمير أرضاً على كورنيش الخبر تساوي قيمتها ثلاثة ملايين ريال سعودي. نصحته بأن يكون واقعياً على الأقل في حلمه، فحتى الأمراء لم تعد عطاياهم كما كانت، وأن يكون حراً -على الأقل- في أحلامه، فلا يليق برجل يقضي نصف عمره في السماء أن يظل مقيداً أسيراً للهبات حتى في منامه!

ضحك بصوته الجهوري وقال لي: أبو الدراري، هل ترفض نصف قيمة الأرض إذا تحقق حلمي بعد أن نهزم الحوثيين في الجنوب؟

قلت له: أبداً، ولكن بربك أرسلها على فرع الراجحي... في كاراكاس!

وعادت العشرون ناقة

لا أدري لماذا تبدو أحاديث المطارات عابرةً كما الراحلين الذين يتشابهون دائماً... على حد تعبير صديقنا الشاعر سليمان الطويهر.

كنت في مطار جدة منتظراً رحلةً للوطن حين جلس بجانبي تونسي متعب من سنين السفر أو سفر السنين، في الخمسين إلا قليل...

وحين تقف على شرفة الأربعين تتعلم الصمت بالضرورة، لأن أكثر الكلام يكون قد مر عليك، والأكثر ستقوله للآخرين حين تتقاعد، وحينها لن يضرك الصمت بين حديثين!

بدأنا الحديث عن لطفي بوشناق وراضي الجعايدي، ومالبثنا غير قليل حتى بدأ يحدثني عن الثقافة والفنون في تونس خصوصاً وفي المغرب العربي عموماً، ثم بدأ يثني على طريقته الصوفية التي ينتمي إليها... وفجأةً وجدتنا على باب سيف الدولة والرجل ينشد لأبي الطيب ويقول:

إذا غلا شيء علي تركته فيكون

أرخص مـا يـكـون إذا غــلا !

وأقبل عليَّ بكل جوارحه يحدثني حديث العارفين بفوائد الاستغناء، وأنه الغنى الحقيقي، وكنت أضحك في سري لأني كنت قد أشبعت هذا البيت نقاشاً مع صديق لي قبل عام، وخلصنا إلى أنها إحدى أشهر حيَل الفقراء للانتصار في سباق الحياة المدنية العنيفة.

فالذي لا يستطيع شراء سيارة فارهة يقبل بمركب خجول بالأقساط ويخرج من الوكالة مردداً:

إذا غلا شيء علي تركته فيكون

أرخص مـا يـكـون إذا غــلا !

وبذلك يصبح الشعر أفيون الشعوب!!

قبل الوداع سألته عن مهنته التي كان يعيش منها في فرنسا، فأخبرني بأنه كان عازف كمان لمدة ثلاثين عاماً حتى فقد السمع بأذنه اليسرى، ورأيت في ذلك علمانية تونسية محترمةً جداً.

فهو قد استغنى عن سمع أذنه اليسرى، والتي أهلكتها الكمنجة في الغربة... ليمدَّ رجليه في خريف العمر على بوابة القيروان مذكراً الناس بفضيلة الاستغناء والترك!

عند بوابة الإقلاع حضنني وهمست في أذنه:

الحمدلله الذي خلقك فناناً، فمثل هذه الأفكار لا يقتنع بها سوى الفنانين... والمتصوفة المساكين!

حين وصلت إلى قريتنا يوم عرفة، علمت أن هذه القرية التي ودعتها منذ خمسة وعشرين عاماً ستريحني من قوانين المدن التي جئت هرباً منها إليها.

صباح العيد خرج الناس من كل فج ليصلوا خارج القرية مجتمعين، قام شاب ثلاثيني فصيح اللسان -خريج الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة- وخطب في الناس مذكراً إياهم بنعمة المسجد الذي بني قبل عامين... ونعمة الأمطار التي منَّ الله بها على العباد بعد جفاف دام أربع سنوات كانت الأسوأ في تاريخ المنطقة بأكملها، وأسهب في الخدمات التي يقدّمها المسجد لأهالي القرية من تدريس القرآن، وتحفيظ الصغار متن ابن أبي شجاع في الفقه الشافعي، وكيف أنه غدا مأوى للفقراء ومكاناً للتشاور أيام النوازل والحاجات... وأكد على أنه أشبه ما يكون بمسجد رسول الله -صلى الله عليه وسلم- حيث كان مكان انطلاق كل الأنوار على المدينة.

ثم ختم بقوله: إن لجنة المسجد قررت أن تجمع صدقات هذا العيد لإنارة المسجد، وإعادة صبغه وتجديد أرضيته وفرشه،

ويلزم لذلك خمسة وستون رأساً من الخرفان والفائض سيكون لفقراء القرية. ثم استطرد قائلاً: ولعلي أبدأ بنفسي فأسابقكم إلى الخير... فمني ناقتي البيضاء والتي أرادها الحاج محمد إسماعيل بألف دولار، ثم شرع بالدعاء: اللهم اجعلها خالصةً لوجهك الكريم، ومن ثم توجه بالسؤال لشيخ في طرف المصلّى: أخبرني عن جمالك الستين يا حاج أحمد صالح.

فوقف الشيخ متكئاً على عصاه، وإن شئت فقل على سنين عمره المديدة، وبدأ قائلاً: كنتم تعلمون جميعاً أنه سُرقت مني عشرون ناقة قبل ثلاثة أعوام، وأننا بحثنا عنها في كل مكان ولم نجدها... قاطعه الخطيب مكملاً: وعندما امتنع القطر، وجفت الأرض، وكاد الناس يهلكون من الجوع قبل عام تصدّق الحاج أحمد صالح بناقتين لفقراء القرية، بينما بخل كثيرون من أصحاب المئات والألوف... وتعلمون جميعاً ماذا حدث قبل رمضان هذا العام بأسبوعين!

لقد عادت العشرون ناقة، بنفس وسمها ورسمها، لا أحد يعلم أين كانت ولا كيف دخلت حدود قبيلتنا لوحدها، لكن الجميع يعلمون أن سعرها في ذلك الوقت كان لا يجاوز المائتي دولار أمريكي، واليوم لا أحد يساوم على ناقة عرجاء دون أن يكون في جيبه خمس مائة دولار على الأقل، والله يضاعف لمن يشاء والله واسع عليم.

وقبل أن يجلس الحاج أحمد صالح قال بصوته الجهوري: وليعلم الله أني تبرعت بأجمل تلك العشرين لمسجدنا هذا العام، فدعا له الشيخ والمصلون.

ثم رفع شيخ ثالث يده وقال: ومني ناقة أيضاً، فدعا له الشيخ والحاضرون. وقام رابع فقال: تعلمون عن ابنتي المريضة منذ سنين وإني لأرجو لها الشفاء بدعاء الصالحين والصالحات، ومني ناقة أيضاً. وقام خامس وسادس حتى اكتملت عشرة جمال من أجود جمال القبيلة.

وبدأ الإمام باستقبال صدقات الغنم، فجاوز السبعين رأساً. ثم التفت على المصلّيات فذكّرهن بأن أكثر أهل النار النساء فتصدقن من حليكن يا إماء الله.

وكان أن جمع منهن ذهباً ومالاً وفيراً طرح فيه الرحمن الخير والبركة.

عصر ذلك اليوم جلست وحدي على أعتاب القرية، تمنّيت أن يكون بقربي شاعر الجنوب الجميل أحمد المنعي. فوحده من كان سيدرك أن أبا الطيب كان متصوفاً على طريقة شيوخ قريتنا النائية، ولم يكن أبداً عازف كمنجة من تونس الخضراء!

الأدباء... أوطان صغيرة

«الحمار يحن إلى الأصل ويبتهج بالرجوع إلى الموطن...
وأنا ترعبني فكرة الرجوع إلى بلادي... ولو في مهمة قصيرة!»

عزازيل 252

في الزلزال الأخير الذي ضرب تشيلي قبل عام كانت الأرض تبلع آلاف المواطنين تحت الأنقاض. وعلى بعد ملايين الأميال كان رجل قصير... هندي الملامح... يشارف على الثلاثين عاماً... يفتح حساباً جارياً لاستقبال أموال المتبرعين من إيطاليا وسائر أوروبا لإرسالها دواءً وكساءً لمواطنيه المنكوبين.

لم يكن سفيراً ولا وزيراً، بل كان لاعب «الإنتر» الذي انتقل إلى «روما» قبل ثلاثة أعوام... إنه قلب الوسط ديفيد بيتزارو، حتى ذلك الحين وحتى اليوم لم يكن أحدنا قد سمع باسم رئيس أو رئيسة التشيلي ولا باسم أحد من تلك الديار.

حين سألته المذيعة الايطالية: لمن تقرأ يا بيتزارو؟

- في بلدي، الجميع يقرأ لإيزابيلا العظيمة!

***

في صيف 2005 ميلادي تم اختيار الخرطوم عاصمة للثقافة العربية، ولأن السودانيين معروفون بنهمهم الشديد للقراءة، فإن المحصلة ستكون وجود العديد من الأدباء والشعراء والمثقفين.

لكن السوداني مغمور بطبعه، كسول في إنتاجه، ولذا فإن الوقت كان مناسباً لعودة أشهر طيور السودان المهاجرة إلى الشمال وهو الذي ارتحل من الجنوب قبل سبعة عشر عاماً!

عاد الطيب صالح يملأ الدنيا تواضعاً ومهابةً ووقاراً...

عاد ابن «مروي» حيث النيل يفيض على النخيل ليزيدها شموخاً كل مغيب.

عاد الرجل الذي يختصر في وجهه السبعيني كل تضاريس القارة السمراء، ويركز نظارته بعدستيها الكبيرتين كمن يحمل مشعل نور في عينيه المتعبتين.

حين سألت زميلي المهذب عن شعوره تجاه الطيب وهو يعود إلى بيته بعد أن نقل وطنه إلى العالمية، التفت إليَّ وقال: هذا

الرجل ليس له من اسمه نصيب... إنه ليس بطيب... وليس بصالح!

***

في جنوب أفريقيا حيث أقيمت كأس العالم 2010... كانت كل الدول المتنافسة على استضافة كأس العالم تقدم ملفاتها قبل بداية البطولة بأيام. الجميع استغلوا فرصة وجود أشهر برازيلي خارج المستطيل الأخضر «باولو كويلو» كي يوقع لهم روايته الأخيرة «الرابح يبقى وحيداً...».

نفس عقدة الرئيسة التشيلية تسكن كل من يحكم البرازيل... لأن باولو يتفوق عليهم في شهرته التي طافت الآفاق، وأثبت للناس أن البرازيل لا تطرب بكرة القدم والسامبا وبنّها الفاخر فقط!

***

إنه أعظم روائي أفريقي في الربع الأخير من القرن الماضي. هكذا تعَّرفه «النيويورك تايمز».

أما أنا فتعرفت عليه بين دفتي «عابر سرير»، رائعة أحلام مستغانمي حين استشهدت بمقولته المشهورة: «في الصومال وصلنا لدرجة من اليأس، لا يسعنا معها إلا أن نكون متفائلين...!».

نور الدين فارح... صاحب «خرائط» أعظم السرديات التي تحكي قصص الحدود والنزوح في القارة السمراء...

الرجل الذي اتصل بأحلام ذات مساء ليخبرها بأن بَرْدَ الغربة قد أكل أطرافه، وأنه عائد إلى الوطن بعد أن قضى سنين عمره في المنفى محكوماً عليه بالإعدام!

هو أيضاً ملك متوَّج في غير أرضه، فهو أستاذ الأدب الأفريقي المتفرغ لكتابة إرث القارة في جوهانسبرغ، بينما لا يتعدى عدد الصوماليين الذي يعرفونه أو قرأوا له عدد أصابع اليد اليمنى!

***

«الكلام أدنى لغات البشر، فإذا عجزوا عن الكلام استعانوا بالعزف والغناء ليكملوا إحساسهم، فإذا أعيتهم الحيلة... بدأوا بالرقص، وهو أسمى لغات الجسد والإنسان».

كازنتزاكس – رواية زوربا

لم أزر اليونان يوماً... ولم أقابل يونانياً قبل سبتمبر الماضي. كنت في معاملة حكومية، وحين أردت النزول إلى الطابق الأرضي رافقني أوروبي أحمر الوجه فارع الطول... كسرت حاجز الصمت بسؤاله عن وطنه:

- من أين أنت يا سيدي؟

من بلاد الإغريق... اليونان.

- أوه... من أرض زوربا؟!*

لم يدُرْ في خلدي أن وجهه سيتهلل، وأن الرجل سيحضنني ليعبّر لي بلغة الجسد عن دهشته لهذه المعلومة العابرة للقارات عن وطنه في قلب العالم القديم!

***

في مطلع رمضان هذا العام، غادرنا إلى رحمة الله الوزير الأديب السفير السعودي غازي بن عبد الرحمن القصيبي، بعد داء عضال ألمَّ به.

غازي الذي خدم وطنه لثلاثين عاماً أو تزيد...

سُئل عنه شيخ من أرضه وأهله...

فاستهل حديثه بقوله: أما حديث المصطفى -صلى الله عليه وسلم- «اذكروا محاسن موتاكم» فحديث ضعيف...

ولا أظن أن غازي -رحمه الله- كان يرعبه الرجوع إلى بلاده...

فقط... ربما كان ككل الأوطان الصغيرة، يخشى من جور الأوطان الكبيرة!

عمائم الطرق السريعة!

إن الكــرام إذا مــا أيــســروا ذكــروا

من كان يألفهم في المنزل الخشن

تجتاحني حمى رمضان فأدعو كل مساء: اللهم بلغنا رمضان... اللهم بلغنا رمضان.

ولا ذكرت رمضان إلا وتبادر إلى ذهني صيف الخرطوم وحرُّها... ووالله لو خُيِّرت بين أجر الثلاثين يوماً في «الخُبر» بين أمي وأبي وجموع إخوتي وبين أجر صيام يوم قائظ في الخرطوم لترددت كثيراً... مع يقيني الكامل بأن الله سبحانه لا يناله منها شيء سوى التقوى، وهذا ما لا أضمنه في كلتا الحالتين!

ومازالت أمي تستلقي على ظهرها كلما ذكّرتها بقصة حلاق حارتنا بالقرب من سكن الجامعة. كان شيوعياً ضليعاً في القانون امتهن الحلاقة بعد أن قضى في السجن بضع سنين قلبت

فيها الدنيا لحزبه ظهر المجن، وكانت الأمور إليهم فصارت عليهم وآلت الحال إلى ما قال الأول:

وعاد في طلب المطلوب تاركه

إنا لنغفل والأيام في الطلب

الشاهد أنه كان ظريفاً مع كل الشباب القادمين من السعودية... فكلما حلق لأحدهم همس في أذنه قائلاً: والله ودخلنا الجنة يا ناس السودان، وقعدتوا برا يا ناس السعودية!

وعندما يستنكر صاحبنا الملتزم يبتسم أمجد قائلاً: أيدخل أهل السعودية الجنة بصيامهم تحت المكيفات، ويذوق أهل السودان جهنم مرتين؟!

إن ربك لغني عن هذا!

وقريب من هذا طرفة الكويتي الذي قرر الاستثمار في «دنقلا» حاضرة شمال السودان وإحدى أسخن بقاع البسيطة.

صادف أن حل عليهم في رمضان. وعندما تشرق الشمس ينزل الدنقلاويون إلى النيل أو إلى مزارع البلح والبرتقال الوادعة على كتف النيل.

بينما يتمدد صاحبنا -المعود- بجوار النهر الخالد حتى يرتفع أذان المغرب ويفاجأ قبل الإفطار بدعائهم:

- ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم.

فيضحك قائلاً: سبحانه... إن تقبل مني وأنا المتمدد نصف النهار... لاشك أنه قابل بلطفه صيام يومكم الطويل!

والطرفة عند القوم حاضرة، فلا يمكنك مقاومة صيف الخرطوم الجائر إلا بالابتسامة ومسبّباتها من النكت والطرائف وما انتسب إليهما...

أما طباعهم، فإني عاشرتهم خمس سنين فما رأيت إلا سماحة النفس وطيب الخاطر وانبساط الراح، على تواضع ورثوه من السادة الصوفية، فلا تكاد تميز رجلاً بهيئته أو بثيابه، وإنما المنزل هو المقياس الاجتماعي للمواطن السوداني!

ومعيب عندهم في رمضان أن يفطر الرجل لوحده مع آل بيته، بل يجمع كل بيت إفطاره ويفترشون وسط «الحلة» أو الحارة ويتقاسم الجميع البسمة قبل اللقمة، وهذا ديدنهم على الدوام.

بل وأذهلني منظر صخور كبيرة تفترش طريق الخرطوم -مدني- وهي مدينة جميلة تبعد مائتي كم عن العاصمة المثلثة.

ولم يكن الوقت وقت قطاع طرق... إذ الشهر رمضان والزمان قبل الأذان...

وإذ بشيخين يقفان على طرفي الطريق مادّين عمامة أحدهما بالطول سادّين الطريق على كل الحافلات، وعندما نزل سائق الحافلة لإقناعهم، فاجأنا شباب القرية بإنزالهم الركاب والتودد إلينا أن أفطِروا عندنا اليوم، ثم المبيت وبعدها تزال الصخور والعمائم!

ودواليك في كل طرق السودان السريعة والبطيئة... إذ يُمنع أهل القرى المشي حتى يؤدّي القوم واجب الضيافة مقروناً بالمبيت الذي لا يتنازل عنه السودانيون أبداً.

وأذكر أننا فقدنا صديقنا العراقي الذي أرسلناه ليأتي بالثلج من الدكان قبل الإفطار بدقائق، ولم يصلنا إلا بعد التراويح حيث «اغتاله» بعض كرماء الحارة من أصحاب عمائم الطرق السريعة أعلاه!

ولا يتم أُنسُ الزول حتى تنام عنده... وعندما تصبح الصباح تجد «الزنوبة» أو «الإسفنجة» تحتك، وكوب «الجبنة» بانتظارك... وهي قهوة لا يحسن تحضيرها إلا أهل شرق أفريقيا، وهي وأشبه ما تكون بالتركية عند سواهم، ثم يناولك الفرشاة والمعجون الخاصين بك، وهذا يوازي دهن العود عند السادة البدو إذ لا جلوس بعده.

وما زالت سحنتهم الأفريقية تشككني بجذورهم العربية، حتى زرت «الزيداب»، وهي من قرى قبيلة الجعلية التي ينتمي لها المشير عمر البشير... فذبح لنا القوم الخراف حتى خفنا على وارد المملكة من السواكني حج ذلك العام!

ثم زرت مزارع البرتقال والنخيل على ضفتي النيل، وكان أن غفل ولد مضيفنا القروي عن إحضار طعام الغداء... فصرخ به والده:

- أسرع إلى أمك يا بن الغلفاء... وأحضر الغداء للرجال.

ثم تبيّنتُ أنها شتيمة بليغة عندهم، ومؤخراً وجدتها في شعر امرئ القيس والمتقدمين، كنايةً عن فحش المرأة التي لم تُختن، وتطلعها الدائم إلى الرجال بشهوة، وهو ما كان يعيبه العرب على الفرس والروم، والله تعالى أعلم.

وككل الأفارقة، يموت السوداني وهو يتساءل:

لماذا اختارني الله «بالزات» ليخلقني سودانياً... ويرى في هذا سؤالاً عميقاً قد ضاع جوابه، ويُبعث مثل سيبويه وفي نفسه شيء من هذا التساؤل!

ولا أظن أن هناك بلداً يحتفي أهله بالغريب مثل السودان. كُتب في أعلى بطاقة الطالب الوافد ﴿وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالإِيمَانَ

مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ﴾ (الحشر: 9)... وبعض الدول العربية يستبدلون «يحبون» في الآية الكريمة بـ«يرحلون»، وشتان ما بين المفردتين!

وإذا علم العاقل بعض درجات الحرارة المعتمدة في الخرطوم لَعَذَرَ القومَ على كثرة الكسل والنوم، وهذا لعمري جزء من نضالهم للبقاء على قيد الحياة.

أما الحديث عن الفول (حبيب الشعب) ونكت المواصلات وقصص السكارى في الحافلات، فهذا حديث يُقطع به الطريق ويُسلّى به عن القلب المحزون... وما زلت عند قول عمّنا «البلوله» فوال الحارة السبعيني:

- الخرطوم: مدينة تقرأ بالنهار... وتسكر بالليل!

وعن القراءة حدث ولا حرج، فكل حزب يملك جريدته الخاصة، وكل فريق رياضي، وكل نقابة، بل وأشك في أن كل فرد في طريقه لإصدار جريدته بعد عام!

والسوداني مستعد للنوم جائعاً على ألا يغيب طفله عن مقاعد التعليم ساعة. ويحتفظ كل مواطن برأيه الخاص في كل شأن سياسي ابتداءً بإيقاف البشير وانتهاءً بخريطة الطريق.

وهذا لا يمنعني من حبهم ومن حفظ الجميل لهم. وتالله لقد قضيت عندهم أياماً كنت أستثقلها في حينها، وأنا المشتاق إليها اليوم.

أصبحت مهووساً بالسمر الطوال... في الإشارات أبادلهم التحايا، وأفتح لهم الطريق في التقاطعات. وعندما توفي الطيب صالح حزنت كثيراً وواسيت جماعة المسجد من السودانيين.

وفي المستشفى حيث أعمل، لا أملك قلبي. فوجع السوداني في قلبي مضاعف، وأنا الذي ذقت الملاريا عندهم حتى هذيت بالصومالية مع العربية، وهذا شيء عجاب!

وكل هذا قد يهون، لكن من يستطيع أن يمحو منظر الشيخين الممسكين بالعمامة من الطرفين حباً في الضيف من ذاكرة أبي الدراري المتعبة حباً... من يستطيع؟!

أدركني يا عائض... إني أغرق!

منذ بلغت الرشد وأنا أعشق أبا الطيب وأتنفس شعره، وما ظمأت يوماً إلا وردت معينه فما يردّني عنه شيء...

وعلى جسر محبته قابلت الشيخ عائض القرني، فآنسني في كل غدوة، وأذاقني مرّ حديثه في كل روحة، فما رأيت مثله ولا سمعت عاشقاً لأبي الطيب يوازي همّته وشغفه به، اللهم إلا ما ذكر لي عن الوزير النبيه غازي القصيبي، وعن الأديب الكبير الطيب صالح عليهما رحمة الله، وهما هما!

ولم أنسَ للطيب صالح قوله في سفره الجميل «مع المتنبي ورفاقه»: ومازلت أزن عقل الرجل بمنزلة أبي الطيب منه!

وهذا غلو عظيم لا يقل عن جعله للشعراء قاطبة مرافقين لأبي الطيب في عنوان كتابه أعلاه...

ولكن تأخذ الآذان منه: على قدر القرائح والعلوم.

ولم يسبقهم إلى هذا الغلو أحد سوى شيخنا أبي فهر محمود شاكر في كتابه النادر «المتنبي... نحو ثقافة عربية أصيلة»، وكم أتعبني البحث عن هذا الكتاب حتى إذا وجدته في الدار السودانية للكتب نسيت نفسي ساعتين أمام رفوف الكتب وأنا أحاول تلمس مستقبلات الجمال عند أبي فهر وهو يشرح بائية أبي الطيب في رثاء أخت سيف الدولة الحمداني، ويقف ملياً ليتلمس مكامن الغزل ورسائل الحب المرسلة تحت سواد الرثاء:

ولا ذكرت جميلاً من صنائعها

إلا بكيت، ولا ود بلا سبب...

وينشر عطر هذا الحب المتأصل، وعبق هذا الوجد الذي يزفره أحمد بن الحسين شعراً... فيمرّ هذا البيت أمام العكبري وشراح العربية الأول فلا يحملونه إلا على الوفاء لخولة، وللشراح في ما يعشقون مذاهب!

وتأخر عائض عن القوم، فوقف على أكتافهم وأبصر بما لم يبصروا به، فأقبل بكل فصاحة أهل الجنوب ليشرح كلام ابن سقاء الكوفة، وأكرم بالنوم جفوناً مقرحةً منذ نام أبو الطيب عن شواردها...

وفي منتصف التسعينات الميلادية عارض الشيخ عائض طلاسم إيليا، فحملت ذلك على إعجابه بشعر هذا المهجري

الجميل، فإذا بجموع الصحوة الإسلامية تتغنى بالقصيدة كردٍّ على دعوة إيليا إلى طريق الشك والإلحاد!

أأنا السائر في الدرب... أم الدرب يسير
أم كلانا واقف... والدرب يجري

لست أدري...

ولا يقول ذلك إلا جاهل بمسيحية إيليا التي قادته إلى الكفر بكل الأديان والإيمان بتقديس الطبيعة والجمال في آخر حياته...

حتى ووري جثمانه في ثرى البرازيل حيث احتفت به الطيور والأزهار وأشجار التين التي طالما تغنى بها...

ولا أدري أين ذهب «ليس بعد الكفر شيء» عن جمهور الصحوة آنذاك، فعلام يجاهدون بشعرهم مسيحياً يثلث رب الأرباب ويشرك برب البيت ومُنزل الكتاب!

وها نحن في مطلع الألفية الثالثة نشهد تعاوناً بين الشيخ الجميل وفنان العرب محمد عبده... بل ويُشبَّه الشيخ أبو نورة بأبي الطيب في الشعر... فهو مالئ الدنيا وشاغل الناس... ولعمري ما كذب!

غير أني -وبحكم حبنا المشترك لأبي الطيب- أحذر الشيخ

من حبائل محمد عبده... فهو أشبه ببرشلونة في كرة القدم... مستعدٌ للفوز بكل البطولات في ظرف أسبوعين وبأقل الخسائر!

فمحمد عبده غنى لـ «الملحد» إيليا قصيدة الطين الخالدة، وترنم بأنشودة المطر لبدر شاكر السياب حتى أذهل مقطعها الثالث عقلاء البصرة والشام، واحترم الفصيح في موالاته حتى غنى:

مـالـــي أراهـــا لا تـــرد ســلامـــي
أم أنها قد حرمت عند اللقاء كلامي
أم ذاك طبـع الغيـد يبـدين الجفـا
وفـؤادهـن مـن الـصـبـابـة دامـي

فأدمى قلوب المحبين بفضح أساليب الغيد الملتوية في الحب، وتعاون مع غازي في «لورا» فلم تعجبني وأطربت غيري... وهذه هي قائمة الطلبات التي يوفرها للمثقفين على مائدته!

أما لمحبي التفعيلة والكلمة المغناة فقد أهداهم «البرواز» في أجمل الأماكن، ودعاهم كـ«المعازيم، فأكرمهم في «ليلة خميس» بـ«وهم» الـ«مذهلة»، ثم عصفهم بـ«شبيه الريح»، وأرضاهم بـ«أبعتذر»، فما ملك القوم غير التصفيق والطرب!

أما أصحاب الشعبيات -فلا تضايقونه- لم تضايق أحداً، و«كلمت والصوت مبحوح الحروف» و«السيل» و«سلم علي بعينك»

و«زل ريم الحجر» و«شايل الظبي» و«مثل صبيا» و«رسولي قم» كلها تفي باختزال طلبات الخليج من الشمال إلى الجنوب!

وزار أرض قابوس فأحال «صيور» خالد الفيصل إلى «لابد» ظفار ومسقط فتطايرت الكوفيات العمانية في كل مكان:

حتى وليفك ولو هيم بك هيام
لابد الأيـام تجنـح به عـواديها

في واحدة من عيون شعر الحكمة في المدرسة النبطية، وأطرب أهل فاس اللي ما وراها ناس، وصفق له العرب على أحزانهم حين أذهلهم بـ«الأماكن»، بل واعترفت اليونسكو بعظمة ابن عبده فترجمت رائعته «بعاد» لأكثر من لغة ليصبح رسول الأغنية العربية الجميلة إلى العالم...

فماذا عساه يقدم كي يغرق مركبك المتخم بالجماليات ابتداءً بشعر أبي الطيب وانتهاءً بروحك الهائمة بكل ما هو جميل!

صدقني، كل الذين أدمنوه فيما بعد... كانوا على جهل بامتدادات حبال هذا الجيزاني العنيف، وعمق حنجرته التي تتلألأ ألحاناً حين يفتح فمه فينثر حروف العربية كأجمل ما تكون...

وأنت بنفسك تقول: أصابتني «حمى تهامة» حين سمعت بعشر أبيات من فيه، ولعمري ما أدري ما حمى تهامة، لكني أعرف

صاحبة أبي الطيب التي تغسله إذا ما فارقته كأنهما عاكفان على حرام!

ووالله ما أخشى عليك، مع أن الفتنة لا تؤمن على حي، لأني أعلم أن معك من كتاب الله وسنّة محمد -صلى الله عليه وسلم- وشعر أبي الطيب ما يملأ وقتك...

لكن بربك أخبرني:

لمن تترك جمهور العفاسي وسمير البشيري وعمر يوسف عندما يضعون أول قدم في بحر صوت هذا الشادي الذي لا يرحم... كم منهم سيصرخ يومها:

أدركني يا عائض... إني أغرق!

صباحاتكم... وأشياء لا تهمكم!

صباحاتكم... تقاطيع وجه عامل بناء فاته باص الرابعة فجراً.

صباحاتكم... ورد خدود الصبايا... على سفوح تهامة.

صباحاتكم... ضفيرة غجرية تنتعل الأرض جنوب البتراء...

صباحاتكم... صف خبز طويل وسط قاهرة المعز...

صباحاتكم... طبيب تجميل بترت يده جنوب البصرة...

صباحاتكم... لثغة طفلة صباح أول أيام الدراسة...

صباحاتكم... بقايا الماء من مرفق جدي بعد وضوئه لصلاة العصر...

صباحاتكم... حافلة عشرين راكباً عند معبر القدس... لم تعبر.

صباحاتكم... سبعون مليوناً لم تؤدِّ زكاتها منذ عامين...

صباحاتكم... نار شمالي كريم، خبت كل أضواء المدينة، ولم تزل جذوة قراه مشتعلة...

صباحاتكم... منحة أرض على خط العلا – مهد الذهب...

صباحاتكم... فاصلة أول السطر...

صباحاتكم... سمرة فتاة برازيلية وسط صفرة الصينين في معهد دراسي شرق لندن...

صباحاتكم... أبو وديع متألماً: اللي تعبنا سنين في هواه... عامل نفسه ما يعرفناش!

صباحاتكم... حماة تكيد لزوج ابنتها السابق...

صباحاتكم... أفضل دوري كرة قدم عربي ينتهي قبل ثلاثة أسابيع من نهاية الموسم...

صباحاتكم... مهدي كروبي راكعاً على عتبات أحمدي نجاد...

صباحاتكم... كسر في مرفق ابنة الجيران التي لم تخطب بعد...

صباحاتكم... حفيد شيخ القبيلة يغازل عند مدخل مرقص شعبي خلف مجمع السيف في المنامة...

صباحاتكم... ليلى والذئب... في مدخل شرياني.

صباحاتكم... صحن كنافة في حضرة... مريض بالسكري.

صباحاتكم... العنا... وشهو العنا؟!

صباحاتكم... شيء قريب ما أوصله...

صباحاتكم... اثنا عشرة شائعة تخرج من ديوانية كويتية قبل الفجر...

صباحاتكم... إذاعة صوت الخليج تصدح: حاول تفتكرني، ضحى الأحد.

صباحاتكم... ساندرا بوليب تقبل مايك الضخم في نهاية: «The Blind Side».

صباحاتكم... قراصنة على مضيق عدن... ليفرجوا عن أطفالهم ضيق السنين.

صباحاتكم... ساري العتيبي وعبدالرحمن ثامر لم يكتبا قصيدةً منذ عام...

صباحاتكم... محمد صادق ذياب في بطن جدة... المدينة التي حملها على ظهره كل تلك السنين.

صباحاتكم... كنّاس في نواكشوط يراجع ألفية ابن مالك، وينوي تقريضها بعد عام.

صباحاتكم... حمار منتوف على جبل دخان... مظنّة أن يكون ملغماً...

صباحاتكم... أسعار الوقود الجديدة كل أربعاء...

صباحاتكم... نجل الفاتح العظيم «يقنص» الخنازير البرية شرق الجزائر.

صباحاتكم... عيسى بن راشد آل خليفة هو من كتب «واقف على بابكم... ولهان ومسير»...

صباحاتكم... الشيخ جابر -رحمه الله- كان يصلي الفجر أمام قصر دسمان -كل صباح- بلا حرس ولا حاشية...

صباحاتكم... «سنا الفضة» لطلال الرشيد تغنيها ثلاث مرات فقط يا فنان العرب... تباً لك هذه المرة.

صباحاتكم... موال عراقي مات حاديه حزناً عندما -حول- من

مقام الصبا فتعثر عند بوابة البيات...

صباحاتكم... اثنا عشرة حرباً في المنطقة العربية على مدى ستين عاماً... واسرائيل لا يهمها سوى أمنها الداخلي...

صباحاتكم... البشير يودع الجنوب... والجنوب ينوي المطالبة بحصته من نخيل دنقلا...

صباحاتكم... شيخي يقول: تحدثوا بأحلامكم يا أبنائي... كي لا تنسوها... ولكي يستجيب القدر!

صباحاتكم... لايهمني رأي الأطباء، على الفقهاء أن يعيدوا النظر ويسمحوا لنا بمغادرة الحياة انتحاراً... دون الخوف من جهنم... ولو لمرة في العمر!

صباحاتكم... أمي امرأة جميلة... لم تكن لتنجب أكثر من ثمانية أبناء... والدي رجل نبيل... تدارك ضعفها وقطع البحر، جاور قوماً كراماً، فأصبح لي مئات الأصدقاء!

صباحاتكم... تفهموا حالة الذين يأتون إلى المسجد بثياب النوم، الكثيرون يمشون في عز نومهم!

قوموا لصلاة الظهر يرحمكم الله.

بين حجتين

أنا لا أخجل أبداً من دمع أمي كما يفعل درويش...

فأمي تعرف عني كل شيء...

تعرف تماماً حكايا الرمد، حين كنت أُقاد إلى الحمام كي أتبين الطريق كل صباح...

كانت تطعمني سبع جزرات كما أوصتها الطبيبة الإيطالية الفرعاء، وكانت لا تنسى موعد قطرة العين قبل المنام.

لكنني أخجل تماماً من ذاكرة جدي... لقد مات بعض جدي... وإن البعض من بعض قريب... قاتل الله الهرم... لا يتركك مع الأحياء... ولا يركلك بشرف مع الأموات... إنه يمضغك كلقمة طفل سنة التسنين!

قبل خمسة أعوام من اليوم بدأت رحلة عودة جدي إلى طفولته... فقد بدأ الخرف يدبُّ إليه... كانت أولى النوافذ نافذة

الخوف من فقد الأصدقاء والذكريات، فقد كان يحن دائماً إلى أصدقائه الذين بدأ الموت يتخطفهم واحداً واحداً، كانوا سبعة رجال صمدوا بعد سنة الألفين الميلادية، سقط ثلاثة منهم قبل انتصاف العقد الأول من القرن الحادي والعشرين، وبقي ثلاثة في قريتنا الوادعة. توفي أول الثلاثة بعد أن فقد السمع والبصر وأصبح لا يصلي مع الجماعة إلا صلاة عيد الفطر المبارك. وإن كان الموت قد أمهل جدي، فقد اختطف صديقه الأخير صيف العام الماضي... «وليته خطفنا جميعاً ولم يتركني وحيداً» كما قال لي جدي!

إن أقسى العقوبة ألا تجد رجلاً تقاسمه الضحكة والذكريات...

كانا إلى آخر خميس -من عمر صديقه- يجلسان سويةً إلى المذياع، يرخيان السمع لأخبار الخامسة في الـ«بي بي سي» البريطانية، يشربان الشاي، يتهامسان، يلقيان ببعض النكات على العابرين ويفترقان في السادسة والنصف عندما يؤذن لصلاة المغرب...

الطريف أنهما اعتزلا حل المشاكل عندما أصبحا بلا ثالث يرجح كفة أحدهما عندما يختصمان...

فقد كانا يختلفان على كل شيء، وكان الشيوخ الآخرون -عليهم رحمة الله- يفصلون بينهما بالتصويت دائماً، ولأنه لم يعد هناك شيخ ثالث فقد ارتأيا أن يتركا الموضوع برمته للجيل الذي يليهما سناً!

مساء الجمعة... استرد الرحمن أمانته من صديق جدي الوحيد... ومن حينها وأذان الجمعة يعني لجدي نداء الموت وقيام الساعة... وكأن الموت ديان قديم لا يطرق إلا باب جدي نهار الجمعة...

لقد فقد نصف وزنه، وذهبت نضارة وجهه، وحينما اشتد عليه الأمر ارتأت جدتي -زوجته الوحيدة الباقية على قيد الحياة- أن يخفوا عنه دخول يوم الجمعة، وأن يقتصر أسبوعه على ستة أيام تبدأ بالسبت وتنتهي بالخميس!

ولكن كيف يمكن لحيلة كهذه أن تنطلي على بدوي لا يحسن سوى حساب شيئين في الدنيا: صلواته الخمس، وعدد إبله عند المغيب...

حينها، أطلقت جدتي تحذيرها الأخير:

إن الشيخ لم يعد يشرب حليبه حتى يصبح لبناً حامضاً!

وهي كناية معروفة عند أهلنا تفيد ضعف الشهية عند المريض لدرجة أن حليبه يتخمر آخر النهار مكانه...

ولأنني بكر أحفاده من البنات... فقد كنت ملزماً بحضور وصية جدي. وقبل الوصية تطرق إلى فصول من حياته التي امتدت لسبعة أعوام بعد التسعين، كان من أعجبها قصة حجه سنة 1965، وهي قصة من قصص الأولين ليس فيها من جمال سرد ألبرتو باثكث فيريرا في «أبنوس»، ولا روعة لغة محمود تراوري في «ميمونة»، وهما يصفان الانتقال من مكان إلى مكان ومن زمان إلى أزمان، لكنها كانت مليئة بالدهشة والصدق والتأملات...

وقد يسر الله لي حجةً إلى بيته العتيق هذا العام... رافقتني فيها فصول رواية جدي... فكان عقلي يستحضر حديثه في كل مشعر من مشاعر الفريضة الخامسة لهذا الدين العظيم.

فجدي، كبقية أهل الله البعيدين عن البيت العتيق، كان قد استعد عامين كاملين لتلك الحجة المشهودة، وباع عشرة نياق وبعيرين من حرّ ماله ليصل سالماً إلى المشاعر المقدسة، حمل معه نصف المال كي يقطع به الطريق، واتفق مع تاجر من أهل اليمن أن يسلمه الباقي حال انتهائه من الفريضة كي يعود سالماً إلى أهله...

أما حفيده فقد أُبلغ في شهر رمضان، وعقد النية قبل حلول شهر الحج بأسبوع واحد، ومن ثم وجد نفسه ذاهباً عائداً على الخطوط السعودية آمناً في سربه معافى في بدنه، لا يخشى إلا الله الذي خلقه... أما الذئب فلم يكن ليخيف قرصاناً على الأرض ناهيك عن فعل ذلك في الجو!

مازال جدي يذكر بالسوء المنزل الضيق الحجرات الذي نزلوا به في مكة، وأنه حين لم يستطع النوم بين أكوام البشر ارتضى النوم فوق السطوح تحت النجوم...

الحسنة الوحيدة التي يذكرها جدي لمتعهدهم أنه كان يُحضر لهم اللحم كل يومين، فلم يكونوا يستطيبون السمك أو الدجاج، على أنه كان يلمزه بلحم البقر الذي كان يحضره لهم وهو يعلم أنه لا يقدم للضيوف بأي حال من الأحوال...

أما نحن فقد نزلنا بالشرائع، وهي منطقة قريبة من الحرم المكي... والطعام كان يأتينا بشتى صنوفه وألوانه رغداً إلى مكاننا بلا عناء... فقد كان يبدأ البوفيه المفتوح في السابعة ويستمر حتى العاشرة صباحاً... ولا يرتفع إلا وينزل الغداء في تمام الواحدة ظهراً حتى الرابعة مساء... أما العشاء فكان يوضع في الثامنة ولا يرتفع إلا منتصف الليل... وبين الوجبة وأختها فصول من الفاكهة... وجمل فنية من حلوى شهيرة تدعى أم علي... وما أدراكم وأدرى جدي ما أم علي!

«عليك بالدعاء في عرفات يا محمد... فهو المقصود والمأمول يا بني»... وقد صعدت إلى جبل الرحمة ودعيت هنالك... ولست أعلم إن كان لذلك سند في السنَّة النبوية الشريفة أو أنني وجدت الناس يفعلون ففعلت مثلهم... وقد أوصانا الشيخ أن نرفع أيدينا حتى تسقط أرديتنا وأن ندعو وقوفاً لا جلوساً...

أما نحن فقد وصلنا إلى عرفة قبل انبلاج الفجر... وقد كان الطباخون أول الواصلين فقد أعدوا قدوراً لو رآها الصائم فارغةً لشبع... وأوقدوا ناراً عظيمة في الواحدة فجراً لإعداد الفطور والغداء لأكثر من ستمائة حاج دفع كل منهم مبلغاً يزيد عن العشرة آلاف ريال مقابل راحتهم تلك الأيام المعدودات. وقد نام الجميع بعد الفطور ولم يستيقظوا إلا على خطبة مفتي الديار السعودية ومن ثم شرع الجميع بالدعاء حتى غربت الشمس...

منذ بدء الخليقة ويوم عرفة قرين الازدحام وضربات الشمس والإعياء والإجهاد، لكننا لم نسجل سوى حالتي رعاف وحالتي هبوط وشكاوى المبتلين بالسكري -رفع الله عنهم- والتهابات الحلق المعروفة في الحج...

وكان من أعجب ما رأيت أن أمراض الناس تظهر إلى السطح وتزيد حالما يجدون طبيباً متفرغاً لهم... وتختفي تماماً باختفاء الطبيب... وكأن وجه الطبيب يذكرنا بأمراضنا التي نسيناها...

إنه لأمر مؤسف أن يصبح قفا الطبيب خيراً من وجهه!

لم تكن تلكم الوصية الأولى لجدي، فقد كتب أختاً لها سنة ذهابه إلى الحج سنة 1965، وأوصى ألا تُفتح ولا تُقرأ إلا بعد ثالث أيام التشريق... فقد كان الموت في الجمرات مسلمةً من مسلمات الحج حينها...

أما نحن، فقد وصلنا بفضل الرحمن على التوسعة الأخيرة للجمرات وقد رأينا العجب العجاب، فلا يمكن للمرء أن يستشعر لقب خادم الحرمين الشريفين حتى يرى بعينيه العناية التي توليها الحكومة السعودية للمشاعر المقدسة، فلم يكن يدور بخلد أحدنا أنه سيقابل الشيطان وجهاً لوجه ويرميه في المربع الذي يحب من نصبه المشهود...

ولولا أن يقال أن أبا الدراري ينتظر شرهةً وبشتاً وألف ريال، لحلفت غير حانث أن جميع الخلفاء يفارون -في قبورهم- من الجهود المبذولة لتذليل الصعاب أمام حجاج بيت الله الحرام، وقد رأيت الكثير من الكشافة والمرشدين والمتطوعين لتوزيع الماء والطعام وإرشاد التائهين وإسعاف المرضى، والقوم يرون خدمة الحجيج شرفاً وفضلاً منَّ الله به عليهم من بين الأمم...

ولعل ذلك أحد أسرار البركة التي تحف هذا البلد الذي دعا له أبونا إبراهيم... واختصته الطبيعة بمزحتها الأجمل حين

فجرت النفط من تحت أقدام رعاة الشاة والبعير... وفوق ذلك تحميه أمريكا!

ولو لم يكن جدي متعصباً للشعر والشعراء... لأخبرته أن الفيصل خالد اعتزل القصيد هذا العام... ولم يكتب سوى قصيدة الحج على بحر الكامل وقافية النجاح!

الموت شعراً على طريقة أمي

مازالت صفعة أستاذ القرآن مرسومةً على خدي الأيمن منذ أن علم أني أحفظ واجب القرآن الكريم بقراءة الدوري بدلاً عن قراءة حفص التي كان يلقننا إياها في مسجد ابن القيم بالثقبة، ولم يكن ذاك الشيء الوحيد الذي أختلف فيه عن باقي الطلاب...

كانت أمي تعاني كثيراً لأتجاوز حاجز اللغة العربية التي لم أتقنها بعد، ونحن القادمون للتو من قريتنا في عمق الشمال الشرقي من الصومال... ذلك البلد العربي الذي اندلعت فيه الحرب الأهلية فجأة، ومازالت نارها لم تخبُ بعد، وأنا أدخل إلى عامي الخامس لكن بعد العشرين يا أمي...

أذكر أنك كنت تترنمين ببعض الكلمات وأنت تمشطين شعري القصير، وأذكر أنك قلت كلاماً كثيراً يصاحبه لحن خفيف حين دخل والدي المستشفى مساء الأحد 13 - 9 - 1991 عندما

اصطدم بأربع سيارات أمام الإشارة لأن بيتنا في حي المدينة الجميل وسط مقديشو غدا ملكاً للرعاع ولقطاء الأحياء الخلفية، وهو الذي كان قد أتم بناءه ذلك العام ليطلّق الغربة ويتزوج الوطن...

ولا وطن يا أمي...

في الثانوية اكتشفت أن أمي تستقبل الأشرطة من القادمين... لتسجل ردوداً طويلةً على وجهها الآخر... ولم تكن تلك المحادثات سوى مساجلات قبيلتنا مع جيراننا -الهبر جعل- ولم يكن ذلك غير صوت جدتي التي تحفظ القصيدة كما درج الأولون منا من أول مرة... لتبعث بها إلى أمي ولتعارضها مباشرةً... كما يفعل الشعراء في بلدي...

في السنة الأولى من المرحلة الجامعية... سافرت إلى الخرطوم ولم يكن يدفئني من برد الغربة... سوى تلك الأشياء التي أهداني إياها الأصدقاء والمحبون. ومع برودة الأيام أخبرت أمي ذات اتصال أنني مللت، وأنني لا أطيق الجلوس، وكان الرد كالعادة بشريط حملته لي أخت عزيزة على قلبي حتى اليوم...

وفي الشريط كانت القصيدة تمرحل كل التحديات التي تخطيتها مع أمي... منذ أن غادرنا قريتنا الجميلة... حتى حصلت على ابتعاث الطب عامها...

وناشدتني الله والأسرار التي بيننا أن لا تعود... وأن الطب هو قدرك كما أن محبتي التي لا تنتهي لك هي قدري يا محمد...

ذكرت غير مرة أن قدري كان مختلفاً... فأنا تعثرت بديوان أبي الطيب المتنبي وأنا أحاول تعلم قراءة العربية...

وفيما بعد غنيت مع إيليا أبو ماضي كل الألحان، ومازالت تستوقفني جزالة محمد مهدي الجواهري... وتطربني شاعرية السبهان وابن المنعي...

بالأمس أخبرتها أن أحدهم اتهمني في لغتي الصومالية... فضحكت وقالت: من لا يستطيع ارتجال القصيدة بلغته يا محمد... لا يستطيع أن يكون أفضل منك فيها...

وأنت طروب كما عرفتك يا ولدي...

وكان أن أجلستها بجنبي بعدما أعددت لنا دلة الشاي المترعة بالدارسين كما يحبها الصوماليون، ثم ضغطنا على رابط جميل جداً لقصيدة صومالية... والذي أهداه لي رجل عزيز على قلبي كثيراً...

ومع القصيدة التي يصر صديقي أبو بكر الشنقيطي على أنها عمودية، مع جهله التام باللغة الصومالية وتراكيب الشعر فيها... كان هذا العمل المشترك:

أمي تطرب وتشرح...

وأنا أترجم لكم القصيدة باللغة العربية الجميلة...

لأنقل لكم هذا الإحساس الإنساني العالي جداً... والمغرق في وصف العشق وبلائه... ليكون أول دويتو بين أبي الدراري وأمه التي تصر على توثيق كلامنا في شريط لأنها لا تثق بشيء من الأجهزة الحديثة...

القصيدة بعنوان: ما هو العشق؟

Waa Maxay «Caashaq»?

للشاعر الجميل جداً عبدالله نور الدين أحمد، وللعلم، فهو من مواليد «جكجكا» وهي عاصمة الشعر الصومالي شاء من شاء وأبى من أبى، وسكانها الأوجادين معروفون بفصاحتهم المطلقة، وهم مع الهبرجعل والدولبهنتي يمثلون مثلث الشعر الصومالي على مر العصور. وهذه هي القصيدة التي أنصحكم بمشاهدة تسجيلها في اليوتيوب، تحديداً آخر دقيقة فيها حين يسكن الوجد الشاعر الجميل عليه رحمة الله فيكاد يموت... ولا يبقى عليه من الصبر شيء... فيبكي ليجيب عن السؤال بأفصح اللغات.

ولمن ينزعج من تكرار حرف العين في مطلع الأبيات -إن عرف المطلع- فعليه أن يتفهم بأن القافية في شعرنا تكون في المقدمة... يعني هذه قصيدة قافيتها العين لمن يحضر القسمة من نقاد أفياء قاتلهم الله!

«أنا رجل أضناه العشق
عليلاً منذ يومي
طفلاً كان يسكنني
علّة الشيطان تلك
أثقلت روحي المتعبة
لم أكن أخشاه في بداياتي
دائما كان تحت السيطرة
استنجدت بالأصدقاء والأقارب
علقت تميمة الشيوخ
ذبحت لهم الشياه
زرت ديار العرافين
خططوا كل الأراضي
ضاقت بي الدروب
عشرون شهراً لم تفد
واليوم هاهنا
ذاك المريض أنا

هاج العشق فيني

لم يجد غيري غداءً

وعشاء

اصطفى اللحم مني

والشحم لم يترك أبداً

لم تزل غير الحنايا

عفت كل شيء

لم يعد يرويني شيء

حتى الحليب

لم يبقَ غير الريق مني

يروي الجسم الفناء

مثل الشيوخ انحنيت

ثقلي على العصا

لولاها لما وقفت

سيقاني لا تذكر الهرولة

والعجز فيها سكن

لكن على ماذا النواح

يبقى من الرجال الأقوياء

تلك التي أورثتني المحبة

عدوي هي اللدود

والنساء لا تهوى
من لا يملك قوته يومه
يغويهن من يملك الأكثر
والأجمل ملبساً دائماً
حتى لو كان عفريتاً
ذو المال سيدهن
علمي جاءني خبره
أنهم قيدوه في سجن المحبة
تلك التي هواها
جفته حتى مات كمداً»

عبدالله نورالدين أحمد
شاعر صومالي ومذيع مشهور توفي في عام 2008

علمي بودري: أسطورة صومالية في العشق والغرام... كان معروفاً بهيامه لمعشوقته «هدن» حتى منعها أهلها من الخروج...

وذات قيلولة من علمي خرجت هدن من بيتها لحاجة، وحين استيقظ لم يجد أثراً لهدن التي مرت من جنبه!

لكنه وجد العذال جنبه... يخبرونه الخبر ويشمتون به على طريقة طلال مداح رحمه الله:

«مرت ولا حتى تلتفت... مرت

وعن عيني اختفت... مرت»

فحرّم على نفسه النوم بعدها... حتى مات سهراً...

عليه وعلى كل المحبين السلام.

وشعره معروف في التراث الصومالي، لكني لست واثقاً من أن أمهاتكم سيسعفنكم مثلي...

كوني بخير... أمي العظيمة

صديقي يتعلم الحب

لا أبالغ إن قلت إن نصف الأفكار المجنونة في هذا العالم تولد بين المغرب والعشاء... ولعل قِصَرَ الوقت لا يعطي للأفكار وقتاً للنضوج كما هو الحال في أفكار يوم الجمعة التي لا تستوي أبداً... هي تولد... لكنَّها تستعصي على البقاء فيغمرها طوفان السبت بمواعيد العمل وقرع طبول الحصص الدراسية في الفصول... فتتلاشى كسرابٍ بقيعةٍ يحسبه الظمآن ماءً...

ولعلها إشكالية المجتمع مع خطيب الجمعة... هو يعتلي المنبر بأفكاره... وينسى أن شمس السبت سوف تعلو عليه وتعتلي على أفكار الجموع الخاشعةِ أمامه...

صديقي سالم هو أحد المواظبين على صلاة الجمعة كل أسبوع.

هو لا يقرأ أبداً، لكنه يستأنس بهذيان المثقفين، على حد تعبيره. اتصل بي البارحة بعد صلاة المغرب سائلاً عن آخر دواوين الشاعر المدعو نزار قنباني؟!

ضحكت وقلت له: ليس من حقك كمعجب بالحركة الثقافية أن تضيف حرفاً على اسم شاعر مشهور كنزار... وبالمناسبة لعلك تسأل عن الأعمال الكاملة للرجل لأنه ودَّع عالمنا قبل أعوام قليلة...

- قاتل الله النساء... خطيبتي ترهقني بالرسائل يا رجل، وأنا رجل الأرقام كما عهدتني. هل تصدق بأنها تمسيني برسالةٍ وتصبّحني بأخرى، وأجزم بأنك إن لم تساعدني ببعض الرسائل فسألعنك وألعن نزاراً في قبره... وألعن خطيبتي وكل عروض الجوال التي تغري بإرسال رسائل الحب الليلية بالمجان!

ابتسمتُ وقلت: موعدنا غداً بعد صلاة العشاء...

ضحك وأردف قائلاً:

- يا له من ليلٍ طويلٍ غداً... أوله أنت وآخره رسائلها...

جلسنا عند البحر، لم يطق صبراً فافتتح الجلسة قائلاً: باختصار علمني ما الحب، والأهم هو كيف أرد على مراسيل خطيبتي؟!

أما الحب فأنا أصغر من تعريفه، وهو أكبر منك إن كنت تريد معرفته باختصار: أشبه ما يكون بهذا البحر يا سالم، هدوءه آسر، لكنه خطير في الأعماق، خطير جداً يا سالم!

- بدأنا بالهذيان، لا أدري أيهما أصعب فهماً رسائلها أم أسلوب كلامك هذا، وعلى ذكر الهذيان: ما قصة نزارٍ هذا مع نهود النساء؟!

حاولت أن أبسط له مفهوم الرمزية عند نزار، وأنه قد يختزل الشهوة ومنظورها كله في نهد بارز أو أحمر شفاه، على أن يفهمه القارئ من تلقاء نفسه.

- وهل يشترط أن يكون القارئ قد قابل نزاراً حتى يفهمه؟

- لا يا عزيزي، ولكنه صاحب مدرسة فريدة. يكفي أن يقرأ المرء له مرة واحدة حتى يصبح أسير تشبيهاته ومعاركه الغرامية مع النساء.

لم يشأ صاحبي أن يحرجني بالسؤال عن موقع المدرسة وعدد طلابها، لكنه استعاض بالسؤال عن الحل المناسب مع رسائل زوجة المستقبل؟

اختصرت عليه بالقول: إن الحب حالة نفسية تنعكس على حياتنا فنحاول التعبير عنها بشتى الوسائل، ولعل الرسائل إحدى تلك الوسائل يا سالم، يجب أن تعيش الحالة النفسية وتتشبع بها لتكتشف الطريقة المثلى للرد، ليس بالضرورة أن تكون رسالة جوال، ولكنها قد تكون عطراً أو ساعة أو حتى أحمر شفاه، فقط يجب أن تعرف ما هي وسيلة الرد الأكثر إقناعاً يا سالم.

في الطريق إلى موقف السيارات وصلت رسالة على جواله، ابتسم وقال لي:

ليشهد الله أني سامحتك، وسامحت نزاراً في قبره، ولكن سحقاً لشركة الجوال وعروضها يا رجل...

رجل الظّل... منْ ينصفه؟!

سؤال قديم جديد، يحسنه البسطاء ولا يجيب عليه العارفون...

سؤال أزلي يتقادم يوماً بعد يوم...

هل الشعوب هي من تعطي الحكومات قيمتها؟ أم أن الحكومات هي من تخلق الفرد بكل تفاصيله؟ تفصله وترسم طريقة حياته وملامحه؟

هؤلاء المبتسمون على الصفحات الأولى... من رسم ابتساماتهم ومن أوصلهم؟ وهل حقاً هم عصاميون لملء الصفحة الأولى بهذا الشكل والحجم؟ أم أن هناك من يضع مهاجم كرة القدم أمام المرمى ثم يعود أدراجه حين تحين لحظة الفلاشات والأضواء؟

هل هناك مخلوقات تقتات على الظل... تماماً كما تموت كائنات أخرى إذا ابتعدت قليلاً عن الشمس والصفحات الأولى؟

وإذا كانت الحياة تنصف -بإجحاف- أحياناً هؤلاء الباحثين عن الشهرة والمجد... فهل يأتي زمان ينصف رجال الظل؟ وهل يتقدمون أحياناً لصعود المسرح فيأخذون بأيديهم وأرجلهم بعض حقوقهم... أم أن الجمهور هو من يتذكر هؤلاء البسطاء فلا يتركهم لذاكرة النسيان...؟!

في المسرح كما في الحياة، رجال ونساء امتهنوا دور -الكومبارس- على الدوام، وهي الأدوار الثانوية في الأفلام والسينما، قد لا نعرف أسماءهم، ولكننا نحسن تمييز المبدعين منهم فننصفهم في الأسواق والمجمعات ومواقف الحافلات...

يحمل «نصر سيف» جسداً ضخماً ووجهاً يناسب أدوار الشر النمطية، كما يراها المخرجون العرب، ورأساً أصلعَ بدون شعر، جعله يشكل «كاركتر» منفرداً وخاصاً به. يشبِّه البعض سيف وزملاءَه، الذين ينحصرون في أدوار معينة، بأنهم كالملح، لا يكون العمل الفني مكتملاً أو له طعم إلا بهم، رغم أنهم يبقون عادة ممثلين هامشيين. ويطرح هؤلاء سؤالاً: هل كان يمكن أن تنجح مسرحية عادل إمام، بدون الشرير الضخم، الذي لعب دوره نصر سيف؟

إن الممثل الهامشي أو الكومبارس يشبه كل واحد فينا من عدة وجوه، فهو يُعرف بشكله وليس باسمه، ووجوده على الشاشة يكون دائماً لخدمة ممثل أو نجم أكبر، وظهوره يكون عابراً ويبدو غير مؤثر مثل دور أي منا في مجتمعه...

لذا ليس غريباً أن نحب ونتعاطف مع الذين نراهم على الشاشة في أدوار صغيرة ولا نعرف أسماءهم، وعندما نراهم فجأة نجري نحوهم، تعبيراً عن حبنا وإعجابنا بهم...

وهو إعجاب بواحد منا، يختلف عن الإعجاب بممثل كبير أو نجم لامع، قد يتأفف من جمهور يقبل عليه، أو حتى يستغل نجوميته بشكل مادي، مثل أن يفرض على معجبيه لقاء مادياً لالتقاط الصور معه...

وقد يفاجئ الكومبارس البطلَ الحقيقي، فيسرق منه الضوء كله وتنقلب الآية، ولكن يبقى اسم الأول وتخلد صورة الثاني. فمن يتجاهل سعيد صالح بحضرة عادل إمام...؟

فإن كانا قد رسما البسمة على ملايين العرب من الخليج إلى المحيط، فقد خلد عادل إمام اسمه على الدوام وظلت ابتسامة سعيد صالح باقية في كل المشاهد، ومن ينسى نجاح الموجي الطويل الأصلع صاحب الأدوار القصيرة والصوت الجهوري المميز...؟

وإذا ذكر الكومبارس الذي يأخذ كل الأضواء ولا يترك سوى الجوائز للأبطال فإننا بصدد الحديث عن أسطور حية تدعى «مورجان فريمان» الذي ولد لأسرة متواضعة الحال في مدينة ممفيس بولاية تنيسي قبل نحو أربعة وستين عاماً. ولا يمكن لأحد أن يتجاوز دوره في فيلم «The Shawshank Redemption» (إصلاحية شوشانك) سنة 1994، الذي عده النقاد كأروع أفلام التسعينات الميلادية...

وبعده بعشرة أعوام كاملة وفي ليلة توزيع جوائز الأوسكار سنة 2004، كان مورجان قد توشح بوشاح ذهبي في تلك الليلة الشاتية... لم يساور الشك أحداً من الحضور بأن الجائزة ذاهبة إليه عن دوره الرائع في فيلم Million Dollar Baby، لكن اللجنة المنظمة اكتفت بتسليمه جائزة الأوسكار عن أفضل ممثل مساعد، بينما ذهبت الجائزة لبطلة الفيلم هيلاري سوانك!

الكومبارس له دور أساسي في الفيلم السينمائي، وكذلك في الحياة. فلا ينجح الفيلم ولا تسير الحياة بدونهم، فهم المحرك الأساسي للدراما في الفن والحياة... بل هم الحياة نفسها...

في العمل الفني ينقسمون إلى نوعين: صامت ومتكلم. الصامت هو من المجاميع الذين يرسمون بأجسادهم الحياة في الخلفية وراء أبطال العمل الأساسية حتى تكتمل الصورة في العمل

الفني، فبدونهم لن تكتمل الصورة. أما المتكلم فهو الذي يحصل على دور أقصاه خمسة مشاهد، ويقول من خلالها كلمة لها معنى أو هدف ما في البناء الدرامي لتقدم لنا عظة ما... كما في الحياة. فيوجد من البشر من يعيش حياة كاملة لا يفعل فيها شيئاً له هدف أو جدوى إلا كلمة يقولها في موقف ما حتى ينقذ إنساناً ما، أو ليكون هو بذاته عظة ثم يموت بعدها أو ينتهي دوره في العمل الدرامي.

هذا في السينما. أما في الموسيقى فكلنا نعرف عمالقة الطرب العربي، لكننا نادراً ما نتذكر الملحنين، وهم أعظم المبدعين على الدوام. فمَن غيرهم يستطيع رسم المفردات في الهواء وهم الذين يرسلون مطرباً صغيراً إلى مصاف النجومية بلحن بسيط قد لا يكلفهم شيئاً من أوقاتهم...

عندما سئل الملحن السعودي القدير عمر كدرس -عليه رحمة الله- عن أعظم أعماله أجاب: تفعيل موهبة محمد عبده كانت أهم إنجازاتي!

ربما تكون الصورة واضحةً أكثر في لعبة كرة القدم، ففي اللحظة التي يسجل فيها المهاجم هدفاً فتهتف الجماهير باسمه يكون هناك حارس يذود عن المرمى طول المباراة، ومدافع يراقب مهاجم الفريق الخصم، ولاعب وسط ماهر يمرر التمريرة إثر الأخرى كي ينفرد المهاجم في لحظة ختامية يسدل بها الستار

على عمل جماعي يحصد نتيجته نجم واحد ومجموعة من رجال الكومبارس خلفه!

وقد لا يكون تعريف الكومبارس هنا دقيقاً بمعنى الكلمة إذا قورن بلاعب الارتكاز في كرة القدم، فهذا الدينمو الذي لا يعرف أثره إلا المدربون والخبراء في اللعبة المستديرة، يطلب منه قطع الكرات وتمريرها مباشرة إلى صانع الألعاب أمامه، وقد تنتهي المباراة وهو لم يجاوز الدائرة، وقد ينال «بطاقةً» أو يُطرد من المباراة، بينما يبقى وفياً لتعليمات المدرب وتوجيهاته، فالجمهور والمبتدئون يرونه مصدر المصائب، والثغرة الكبرى، واللاعب الذي لا يملك من الموهبة شيئاً، بينما هو يمارس دور الكومبارس في أسمى صوره وأشكاله!

وغالباً ما يناط بدور الكومبارس لاعب الخبرة حينما يكون بديلاً في الدقائق الأخيرة من المباريات الحاسمة، فمن يستطيع تناسي المهاجم النرويجي البارع سولشاير الملقب بأشهر بديل ناجح في كرة القدم، حين كان يشركه السير أليكس فيرجسون غالباً عند الدقيقة التسعين ولم يكن يخيّب ظنه أبداً... ولا أدلّ وأفصح من هدفه في مرمى بايرن ميونيخ في الدقائق القاتلة ليتوج المانشستر بطلاً لأندية القارة العجوز سنة 1999، وليضعه النادي الإنجليزي ضمن أعظم عشرين لاعباً في تاريخه، ولم يكن

السير ليفرط في نجم بهذا الحجم، فقد أوكل إليه تدريب ناشئي الفريق الإنجليزي بعد اعتزاله مباشرة...

وقد يتهور المدافع -الكومبارس- حينما يتلكأ المهاجمون في أداء واجباتهم التهديفية، فيتقدم للأمام ولا يلتفت للوراء حتى ينجز المهمة ثم يعود لمكانه خلف الجميع...

هذا الدور لم يحسنه أحد مثلما أجاده مدافع المنتخب الفرنسي «ليليان تورام» حينما وجد فريقه متأخراً عن المنتخب الكرواتي بهدف في منتصف نهائي كاس العالم سنة 1998، لينطلق القطار الفرنسي من الصفوف الخلفية ويسجل هدف التعادل وسط فرحة غامرة من الجمهور الفرنسي الذي فاضت به مدرجات ملعب العاصمة باريس. ولم يكتفِ تورام -الذي بدأ حياته مهاجماً قبل أن يضعه المدرب قلب دفاع عطفاً على إمكانياته البدنية- بذلك الهدف، بل واصل تألقه ليتقدم بكل مهارة وثقه ليسجل الهدف الثاني ويحمل المنتخب الفرنسي على ظهره إلى المباراة النهائية أمام البرازيل، وحين فازت فرنسا بكأس العالم الثلاثينية وقف الرئيس الفرنسي جاك شيراك والمدرب إيميه جاكيه احتراماً لهذا النجم الرائع...

الأسمر الخجول صرح بعد المباراة بأنه لم يتحمل فكرة خروج فريقه مهزوماً من المباراة لذا تقدمت إلى الأمام مرتين وسجلت الهدفين!

إن نجوم المجتمع في مجالات الحياة المتعددة من السياسة والفن وعالم الاقتصاد والأعمال وحتى في الرياضة والإعلام لا يصبحون نجوماً إلا بمساندة الكومبارس لهم في مجالاتهم، فهؤلاء قد لا يمتلكون نفس الأدوات التي يمتلكها النجوم قبل أن يصبحوا نجوماً كل على حسب أدوات مهنته.

عالم الكومبارس موجود في الحياة قبل الفن... بل أخذهم الفن من الحياة... ليستعين بهم في رؤية الحياة!

الحب بنصف رئة

لم يكن سوى يوم آخر... من أيام غيابك يا صديقي، وكان اتصالاً آخر مفقوداً بين صديقين لمدة شهرين، ثم فجأةً تضيء شاشة النقال برقم غريب...

كل تشويش العالم بيننا، لكنني فهمت أنك دخلت السودان من ولاياته الشرقية المحاذية لأثيوبيا، وأنك ستقطع نصف المسافة على مراكب النيل، وربعها سباحةً كما أخبرك المهرب، بينما تقلك جيوب أصدقائه في الربع الأخير من الرحلة إلى الخرطوم.

خمسة أيام كان الانتظار فيها جليسي... والقلق قهوتي، ولم يكن ليخفف عليَّ سوى أباريق الشاي الأخضر والأحمر والنعناع والحبق والبابونج والدارسين.

آخر العهد قبلها كان إيميلك الطويل الذي أخبرتني فيه بأن سفارة السودان في أثيوبيا رفضت منحك تأشيرة الدخول

كطالب بدعوى انتهاء تاريخ جوازك، وأن المال بدأ ينفذ منك... وقبله الصبر الذي لم تولد به أصلاً!

لم أوافق أبداً على عبورك الحدود الطويلة مشياً وأنت تعرض نفسك الهزيلة لكل مفاجآت الزمان، كنت خائفاً عليك من رصاص جنود الحدود، وبرد النيل الذي ينتظرك كل مساء، عطفاً على رئتك المنخورة بالقات وكل رديء السجائر والدخان، وقبل ذلك كله أنت الطفل الذي كان يقضي نصف أسبوعه في جلسات البخار بعد ولادته بأحد مستشفيات أبو ظبي.

لا أدري لماذا كان الطب يختزلك دائماً في صدرك الضيق المليء بالثقوب والماء والهواء يا صديقي... حتى أن وزنك لم يجاوز الخمسين كيلوجراماً سوى في عيدك الثلاثيني هذا العام؟!

كل الذي حصل أنك تجاوزت الحدود بين السودان الكبير وهضبة الحبشة الكبرى مشياً على الأقدام وأنت لا تراهن سوى على لسانك العربي المعجون بلكنة دار زايد، وعلى لغتك الحبشية التي اكتسبتها أيام كنت تدير مطعماً في أديس أبابا!

هل كنت تقول للجنود الأثيوبيين أنك مزارع حبشي تعدت بقراته الحدود وأنك تريد استرجاعها من السودانيين...!

بينما على الجانب الآخر من الحدود كنت تخاطب

السودانيين بالعربية وتخبرهم بأنك طالب صومالي تأخر عن دراسته فلم يجد حلاً غير عبور الحدود مشياً...

وكلانا يعلم بأنه لا أضعف من السودانيين أمام الصوماليين، وخاصةً عندما نتحدث العربية يا صديقي، إنهم يرون فينا نصفهم الذي عزلته عنهم الجغرافيا... ظلماً! من يستطيع أن يتكلم عن النيل بحضرتك أيها المغامر!

كان مركب خفر السواحل السودانية قديماً متهالكاً تظن لفرط قدمه أن النيل لم يغرقه وفاءً...

لكن جهاز النداء المثبت فيه كان من جيل -الإنقاذ- التي لم توفر شيئاً على مدى عقدين كتوفيرها لمكبرات الصوت التي تخدع بها الجماهير في كل رحلة رئاسية للمشير عمر البشير! كان النداء واضحاً: خليك ثابت يا زول... أي زول يتحرك يتحمل مسؤوليته...

الصوماليون الثلاثة كانوا أول وآخر من قفز للنهر العظيم، السبعة الآخرون من الشرق الأفريقي كانوا لا يزالون تحت رهبة صوت المركب القادم من بعيد...

ولكن من يستطيع أن يوتر قرصاناً... على متن نهر لذيذ الماء... لا ملح فيه!

اليابسة كانت بعد ثلاث ساعات من السباحة، ولكن كيف ستتفاهم مع سكان اليابسة إذا كان النيل قد طمس صورتك في الجواز الذي انتهى تاريخ صلاحيته، والماء قد أزال صورتك عن البطاقة الجامعية التي توفر لك الأمان على طول الطرق.

والأوراق الثلاثة في جيبك من فئة الخمسين دولاراً قد اهترأت ولم تعد تصلح طعاماً حتى لسمك النيل الكهربائي!

كان المسجد مقصود الثلاثة بعد صلاة العصر، فالقراصنة لا يتركون الصلاة حتى بين قتالين، وكعادة أهل القرى سارع الرجال كي يظفر المحظوظ منهم بشرف ضيافة الرجال الثلاثة...

في بيت أستاذ الأدب الإنجليزي الذي درس في جامعة سعودية لثلاثين عاماً، ستعرف الحمى التي لم تر مثيلاً لها في حياتك، وستغرق كل الملايات بالعرق، حتى تعود ابنته الوحيدة من عيادتها الصغيرة مساءً... لتحنو عليك وتطبب رئتك اليمنى التي امتلأت بالماء!

هل تذكر حيلتك الشهيرة حين أخبرتني عن طرفها الناعس ويدها الحانية، لقد تجاهلت اللغة العربية بكل خبث وادعيت بأنك لا تفهمها ولا تعرفها...

أكنت تطرد الحب عن بابك يا صديقي؟

أما زلت تؤمن بأن الحب الأول مصيره الإخفاق والفشل؟

وأنه لا ينجح سوى في تعليمك مبادئ الكلام... وإيقاع المفردات المناسبة لبدء محادثة طموحة!

أما زلت تردد:

الحب... علمها السكوت...

والحب... علمني الكلام!

هل كنت تتسلى باستراق السمع وهي تحدث أمها حين يهطل المساء عنك، كانت تتغزل بطولك وملامحك الفصيحة، وتضحك لتقول لأمها:

- لو كان يتحدث العربية، لكان أكثر من مجرد مريض جميل يا أمي!

هو الصباح... لا يعني سوى السير للعابرين... عشر ساعات كاملة لتصل إلى الخرطوم...

على ظهر شاحنة الفورد، موديل 1960... كنت ترقص طول الطريق المتعرج... كما أخبرتني لاحقاً في جلسة سمر...

- إنها المرة الوحيدة التي تمنيت أن يكون لي فيها إلية خروف بربري... فقد تآكلت عظامي وأنا محشور مع عشرين راكباً ومعزتين وقد اندلقت علينا صفيحة سمن كانت تحملها امرأة قصيرة لطيفة المظهر!

هل تذكر مغرب ذلك المساء حين تقابلنا عند تقاطع الصحافة شرق مع حي الزهور بوسط الخرطوم، أمام مطعم الفول الشهير، لم أحضن صديقاً مثلما حضنتك ذلك المساء...

كنت تعلم كرهي لرائحة الدخان، لذا كان إخراجك لعلبة -البرنجي- الكريهة من جيبك الخلفي ودهسها بقوة هو أول وعودك لصديقك الذي طالما انتظرك في غيابك، لقد صرخت بفعلك: أنه لا تبغ بعد اليوم!

لم ننم يومها حتى الصباح، كل الحكايا كانت حاضرة، ماء النيل كان يقطر منك، بقايا زيت قلي السمك كانت تفوح منك، بقايا السعال الجاف... كانت خجولةً بالمقارنة مع ضحكاتنا الهستيرية...

كنت سمكةً قد خرجت من النيل... ليلتها.

بعدها بأسبوع جاء قرار نقل جامعتك من الخرطوم لتكمل دراسة الصحة العامة في جنوب السودان، قبلت التحدي يومها وقلت:

- لو لم يكن في الجنوب سوى أن المواطنين يغتسلون في النيل قبل الذهاب إلى أعمالهم... لكفى!

لم تعانِ كثيراً في التأقلم مع الحياة الجديدة في «ملكال»، فأنت تطوع الجغرافيا لصالحك منذ سنين...

روح التاجر فيك أهلتك لتكون موظفاً في كبرى شركات الصرافة في جنوب السودان كل مساء... بينما تشرح الحشرات والطفيليات كل صباح في طريقك نحو الشهادة الجامعية...

كانت شاشة النقال الجديد تضيء من جديد ليصلني صوتك المشوش بالسنين:

- لقد تخرجت من الجامعة يا محمد، وأرسلت 150 دولاراً للطبيبة التي أخرجت النيل من صدري، وأخبرتها بأني أتقن العربية أكثر منها!

عمر كدرس...
وهل يموت الطيبون؟

ماذا لو كان الرحمن يخيرنا في مواهبنا التي أهدانا إياها؟

هل كان الكاتب سيختار رفقة القلم الذي لا يُسمن ولا يغني من جوع؟

وهل كان المطرب سيختار رفقة العود كل الفصول؟

وهل سيحسد الرياضي عقل الأكاديمي، أو يطلب السياسي أضواء المخرجين؟

القناعة الوحيدة التي تسكنني... أن الملحنين هم أعظم مواهب الأرض وأجمل من مشى على قدمين...

هؤلاء الذين يشكلون الهواء بأصواتهم... ويقسمون الأصوات على الفضاء فيرسلون شهقة للأعلى ويمسكون صمتةً ذات حزن... فنبكي بلا عناء...

إذا كانت خلايا العباقرة رمادية اللون... فماذا عساه يكون اللون الذي اختاره الله لهؤلاء الملحنين...!؟

الملحن هو أكثر من يختزل ملامح المجتمع النفسية والاجتماعية... وهو من يلون القصص القصيرة بعد أن يرسمها على البياض الشعراء...

الملحنون كائنات ليلية... لذا فهي تعيش في الظل ومن السهولة نسيانها ذات جهل... هم تماماً كلاعب الوسط الذي يمرر للمهاجم بكل هدوء... وحين يأتي الصباح يلهج الجميع بذكر هذا وينسون خالق الفكرة من العدم...

هم أكثر من يختزل التراث بوعي... وينقله للأجيال على بساط المطربين وحناجر الفنانين والفنانات...

سفينة ألحان الحجاز ولد في المدينة المنورة... طيبة أرض المصطفى والأنصار... تلك الأرض التي لا تنتمي لحدود فهي ملك جميع الطيبين...

وبين المدينة ومكة المكرمة والطائف وجدة كان معاوناً لسائق شاحنة، لذا فقد ضم الحجاز بين جنبيه، سمع كل القصص ورواها بقاموسه المليء بالمفردات التي لا تجدها عند سواه... هو... كابن جلدته ولونه في السمرة محمود تراوري صاحب رواية «ميمونة» راوٍ بالفطرة مضحك ككل السمر... بسيط ككل العظماء.

كان يعرف طعم الأشياء جيداً... لذا لم يكن يأكل في المطاعم التي يرتادها الجميع، فالملحنون حساسون بالفطرة، حتى لو لم يولدوا في برج الحوت...

كان يشترط على زوراه وأصدقائه أن يدخلوا جميع سياراتهم إلى داخل الدار ثم يحكم الإغلاق كي لا يهرب أحدهم قبل الفجر ويفسد السمر والسهرة، وحين ترسل الشمس ضياءها يكون دليلهم نحو مطعمه الشعبي المفضل طرف «الكرنتينا» بجدة... ولم يشتهر ذلك المطعم البسيط إلا لأن الكدرس كان لا يفطر عند سواه...

هم يصنعون عالمهم الخاص... ويرسمون ملامح الأشياء، بل وينفخون فيها الروح... كل الروح... تماماً كما يرسمون ملامح لحن جميل... فهم يرسمون طريقة حياة بسيطة عظيمة... فلم يكن الكدرس يملك إعلاماً جيداً، ولم يكن محتاجاً لكل عوالمنا الافتراضية كي يلامس مشاعر الناس... لقد ولد فناناً... مرهف الذوق والإحساس، يملك عيوناً لا نملكها... وأذناً لم يولد بعد من يسمع بمثلها...

تماماً كما يقول العذب أحمد بخيت:

ففـي العـود متسـع للجميـع

وفي اللحن يمتحن العازفون

وليعذرني القارئ إن ابتلعت بعض كلمات الكدرس عن مطرب حقق قدراً من الشهرة ومع هذا لا يرى فيه الكدرس أية قيمة فنية تبرر هذا الحضور، وهو يستدل على فساد الذائقة الفنية بشهرة ذلك المطرب!

ولا أدري إن كان لقب ذلك الفنان هو سندباد الخليج أو غيره...

كان يرى أن الفنان ليس صوتاً جيداً فحسب، بل منظومة متكاملة من الخصائص الفنية ولا يتوفر لبعض الفنانين منها سوى الصوت!

وكما يتعامل الأب مع أبنائه... فقد كان حريصاً على الطريق الذي ستصل به ألحانه إلى المستمع الأخير، لذا كان قلقاً عليها أشد القلق... وهو الذي سعد كثيراً لتحول عمل عظيم مثل «وهم» من أبو بكر سالم إلى حنجرة محمد عبده...

ومثلها أغنية «ليلة خميس» التي حول مسارها من الفنان محمد عمر إلى الفنان محمد عبده... وليس ثمة مبرر مقبول لمثل هذه الأحداث إلا أن يكون قلق الكدرس الفني على ألحانه، يدفعه إلى أن يكتشف في اللحظات الأخيرة تجانسات جديدة للحن مع خصائص فنان أكثر من الآخر...!

ويعترف الكدرس أنه أسهم جزئياً في صياغة عدد من الألحان التي لم تنسب إليه، مبرراً ذلك بشيوع ظاهرة اللحن المشترك الذي يسهم فيه أكثر من ملحن...

والنص الغنائي الذي يشترك في كتابته أكثر من شاعر، وهو ثمرة الجلسات الفنية المشتركة التي كانت سائدة في جدة، والتي كانت تضم مطربين وملحنين وشعراء، ولم تكن بين الفنانين من الحساسيات ما يجعلهم يقيمون الدنيا صراخاً واحتجاجاً إذا ما أسهموا جزئياً في لحن نسب بعد ذلك إلى أحدهم، وبنفس الروح كان الشعراء يتعاملون مع النصوص الغنائية...

يقول عنه طاهر زمخشري رحمه الله: عمر مكتبة متحركة ومثقف عصامي... علّم نفسه بنفسه الأمر الذي صنع منه ملحناً مفكراً وليس مجرد موسيقي...

كان ذلك عندما لحن إحدى أجمل قصائده «أعذب الحب» في ثلاثة أيام فقط بعد إلقائها في حضرة الملك فهد بن عبد العزيز -رحمه الله- يوم تسليمه جائزة الدولة التقديرية عام 1407/1987 لـ تنطلق بصوت محمد عبده...

أما هو فيقول بكل تواضع عندما سئل عن أهم أعماله:

تفعيل موهبة محمد عبده هذا هو الأهم في مسيرتي...! يعتبر عمر كدرس من أقوى الأصوات السعودية على الإطلاق، ويقول

طلال مداح في أكثر من مرة إنه يخشى أن يغني بعد عمر كدرس على المسرح لأنه يصل بصوته لطبقات عالية جداً لا يمكن لأي فنان سعودي أن يصلها ، وبالتالي يشعل المسرح حماساً و طرباً ويصعب على أي فنان أن يسيطر على الجمهور بعده...

ويعتبر المتابعون لتلك المرحلة أن ما أورده طلال من خشية الغناء بعد كدرس يعد مجاملة من طلال ويقال إن العكس هو الصحيح.

في صوته شيء من عنفوان الحارة، وفي مشيته بعض من كبريائها، وفي إبداعاته الكثير من موروثها، هو الموسيقار الذي يعتبره الفنانون قبل الجمهور أستاذهم... حتى هذه اللحظة... أتمنى أن يجيبني أحدهم، في حفلة جدة والتي كانت الظهور الأخير للكدرس، تلك القبلة التي وضعها فنان العرب على رأسه، هل كانت اعترافاً منه بأفضال الكدرس عليه، أم كانت قبلة الوداع لألحان الكدرس التي حملته على بساط الريح للعالمية؟!

رحمك الله أيها العمر الكدرس... فقد كنت فناناً حقيقياً حتى لو لم يكتمل عملك مع أم كلثوم العظيمة، ولقد صنعت النجوم في سماء الأغنية السعودية الحديثة... تأثيرك الفني يوشك أن يلامس الجميع، فأعذب ألحاننا هي نبت أناملك، وفيض أوتارك، أيها البسيط العظيم...

وداعاً للتصوف!

منذ الصغر وعقد التصوف والفقراء تسكنني...

لم أكن أستطيع فهم مشكلتي مع لبس الساعة حتى علمت عندما بلغت أن السادة الصوفية يعتبرونها من الزينة!

وتأكد تصنيفهم لها كنوع من الزينة التي لا تليق بالرجال قياساً على السوار بعد خروج الجوال إلى الدنيا... إذ انتفت الحاجة إلى ساعة اليد بعد وجودها في أعلى شاشة الجوال كما قال القوم.

ولم تكن هذه هي الحادثة الوحيدة التي أفهمها بعد وقت طويل... لكن الكثير من المواقف تزعجني ولا أدري ما هو السبب في ذلك.

أمقت أطباء الامتياز وهم يضعون السماعات حول رقابهم ويتمشون بها بين ممرات المستشفيات وكأن أرواح المرضى معلقة حول أعناقهم الفتية!

ويقلقني هؤلاء المتشبثون بألقابهم الوظيفية على الدوام، أرحم موظف أرامكو الذي يسبق اسمه بمهندس فلان قبل أن يقول اسمه المجرد، وهو يعلم أن آخر عهده بالهندسة كان في الفصل الذي يسبق التطبيق، ويعلم دون غيره أنه لا فضل له في ارتفاع سعر البترول وانتعاش الناتج المحلي... ويوقن كثيراً بأنه لا ينجز شيئاً طوال فترة جلوسه على المكتب من السابعة صباحاً وحتى الخامسة عصراً، سوى في مساعدة الدولة على دعمه مادياً بطريقة رسمية!

ما أجمل أن تقف لرجل في قارعة الطريق قد تعطلت به السيارة، وتساعده حتى يصل إلى بيته سالماً، وحين يزور دائرة المرور يفاجأ بالنجوم التي تعتلي كتفك فتبتسم له ابتسامتك لأي مراجع حكومي ثم تعطيه ظهرك وتعود لأوراقك في علمانية عمل واضحة!

نحتاج للفصل بين أدوارنا الصباحية في العمل، وأمسياتنا الشرقية مع خلق الله.

كونك موظفاً حكومياً رسمياً في الصباح لا يتعارض مع كونك ملحناً مسائياً كما كان إبراهيم خفاجي عليه رحمة الله.

وكونك طبيباً ناجحاً لا يمنعك من كتابة القصة القصيرة وحتى طرق أبواب الرواية كما كان نجيب الكيلاني ومحمد عبد الحليم عبدالله صاحب الرواية الشهيرة اللقيطة!

لم يكن يروق لي زحام النساء مع الرجال في مولد أم درمان كل عام... مع أن الوجد الصوفي كان يرتسم على وجوه العارفين الصادقين.

كانت رائحة الخرق تعبق المكان فالقوم يعتبون على من يحتفظ بالورق ليترك علم الخرق جانباً!

مؤخراً عندما زرت المدينة المنورة اكتشفت بأن الروضة الشريفة تكفيك عن حضور الموالد كل عام، وأن قراءتك لسورة الضحى بتمعن كامل يغنيك عن التركيز في وجوه العارفين سابقي الذكر... وتكفيك شر الاختلاط وأصوات من يحبون تبديع الخلق وتصنيفهم على الدوام.

ومازالت بعض الهواجس تسكنني تجاه بيل جيتس، فالرجل متصوف بامتياز وهو الذي تبرع بأكثر من ثلاثة مليارات لمشاريع دعم الفقراء حول العالم...

وتيقنت بأني لا أحتاج لشيخ يحول بيني وبين المعاني الجمالية في الأشياء حين يستغرق في تفاصيل الأحكام الفقهية...

كنت أستمع لشيخ مسجدنا وهو يتكلم في بداية شهر رمضان عن حكم تقبيل الرجل زوجته وهو صائم، واستشهد بحديث في صحيح مسلم عن هشام بن عروة عن أبيه أنه سأل أم

المؤمنين عائشة رضي الله عنها: هل كان رسول الله يقبل نساءه؟

فقالت: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقبل بعض نسائه وهو صائم... ثم ضحكت!

وجلس الشيخ غفر الله له يفصل في حكم القبلة في رمضان... ولم يعرج أبداً على اللفتة الجمالية والأمانة العلمية عند راوي الحديث حين قال: ثم ضحكت!

كم من الذكريات اختزلت تلك الضحكة... وكم من الحس الأنثوي يعبق من جهة عائشة وهي تختصر السؤال العام بمفردة خجولة (بعض)...!

أظن أن جواب أم المؤمنين يحمل بين طياته مشهداً واضح المعالم... بينما حملت الضحكة جمالاً لا يفهمه سوى العارفين!

ومازلت عند قول الإمام أحمد: إن هذا الدين خلق، فمن فاتك في الخلق فقد فاتك في الدين.

كل الذي أستطيع قوله: إنني أصبحت ألبس الساعة ولا أشاهَدُ بالموالد، بينما أقتنص لحظات تذوق الجمال بين حديث نبوي وبيت شعر وموقف إنساني صادق لا يحملنا عليه سوى التصوف... الذي يمارسه حتى بيل جيتس بامتياز!

أوباما روائياً...
كيف تقرأ روايتك؟

باراك أوباما لم يكن قارئاً عادياً للروايات، لذا جاءت قصته مختلفةً بشكل كبير عن باقي قصص الكفاح في التاريخ العالمي...

يعترف أوباما بأنه عانى كثيراً في فهم جذور هويته الأفريقية، وبالتالي في فهم نفسه خصوصاً مع غياب والده الذي لم يقابله سوى مرة واحدة عندما كان في العاشرة من عمره...

لذا يقول بكل صراحة:

إن غياب والده علمه أهمية الروايات، وهذه القصص ساعدته على فهم هويته، فاثنان على الأقل من معارفه خلال السنوات التي أعقبت تخرجه ظنا أنه سيصبح كاتباً، وأنه الأقرب إلى أن يصبح كاتباً روائياً أكثر من أي فرد في العائلة، فالروايات

جعلت الجوانب الأكثر غموضاً من الحياة مفهومة بالنسبة إليه، أو على الأقل منحته الثقة ليكون قادراً على أن يكتب قصة حياته بطريقته وبالتالي يصبح مسيطراً على الرواية وليس ضحيةً لها.

خلال مراهقته (كما صرح للنيوزويك الأمريكية في الأول من أبريل/ نيسان 2008). كان يشك في بعض الروايات العائلية ويعتقد أنها مبالغ بها بعض الشيء. كان في سن يبدأ فيها الأولاد بالتمييز بين الخرافة والحقيقة، وغالباً ما يخيب أملهم بأهلهم.

إحدى القصص التي لم ينسها تتعلق بوالده. إنها القصة الوحيدة عن والده التي أخبره بها أقرباؤه البيض والمرتبطة بالعرق بشكل مباشر. ومفادها أن:

جد باري الأبيض ومجموعة من الأصدقاء الآخرين من هاواي اصطحبوا باري الأب -والد باراك كان قد غير اسمه إلى باري كي يندمج مع المجتمع الأمريكي- إلى حانة في وايكيكي. المشهد مبهج. الجميع يشربون ويأكلون على أنغام غيتار هاوايي عندما أعلن رجل أبيض بصوت عالٍ للساقي أنه يرفض احتساء مشروبه قرب زنجي.

توقع الزبائن المندهشون حصول عراك. لكن باري الأب ابتسم ووبخ الرجل بهدوء بشأن غباء التعصب، ووعود

الحلم الأمريكي، وشمولية حقوق الإنسان. رداً على ذلك، أعطاه الرجل الأبيض الذي شعر بالخزي مائة دولار تعويضاً عن خطيئة العنصرية التي ارتكبها.

حتى أوباما الشاب وجد صعوبة في تصديق الرواية، لكن بعد مرور عدة سنوات، كما يذكر في كتابه «Dreams From My Father» (أحلام من والدي)، تلقي اتصالاً من رجل أمريكي من أصول يابانية كان زميل باري الأب في الدراسة في هاواي. وقد أخبره القصة نفسها من دون أن يسأله عن ذلك، فتأثر أوباما بلهجة الرجل المفعمة بالدهشة، والأمل.

واعتماداً على المقولة الشهيرة «إن من يقرأ كثيراً... هو بالضرورة كاتب جيد...» فقد كتب أوباما مذكرات تفصيلية في نيويورك، وقد تبين فيما بعد أنها مفيدة، يقول:

«كتابة المذكرات خلال هاتين السنتين لم تزودني فقط بمواد أستعملها في كتابي، بل علمتني أيضاً طريقة صياغة الجمل لتكون مؤثرة».

وربما تكون هذه العوامل: القراءة، الكتابة، القدرة على الحلم بطريقته الخاصة، وحتى الاندماج مع البيئة المحلية باستلهام ذاكرة قارة كاملة عن طريق القراءة، هي التي جعلت

باراك أوباما مديناً لقراءة الروايات وكتابة المذكرات فيما بعد... فقد ساعدته على تشكل حلمه بطريقة عجيبة ليصبح أول رئيس أمريكي «غير أبيض»، ومن يدري فربما كانت كل ورقة تصويت بيد كل ناخب أمريكي هي ورقةً في فصل من فصول رواية أوباما الحقيقية!

إن الرواية لم تعد هدفاً للتسلية، أو قضاء وقت ممتع، بل أصبحت عملاً فكرياً وفنياً يتطلب جهداً خاصاً من الكاتب، ومن ثم جهداً متميزاً من القارئ، الذي أصبح لزاماً عليه أن يقرأ وهو يفكر، وأن يتأنى في قراءته حتى يتمكن من متابعة الصورة التي يرسمها الكاتب للشخصية والتي تتميز بفردية لم يسبق لها نظير...

فمن المعروف أن هذا الفن الأدبي (الرواية) فنٌّ حديث نِسْبياً، لم يَمْضِ على استوائه على سوقه، ناضجاً، أكثر من ثلاثة قرون في العالم الغربي، ولا أكثر من قرن ونصف قرن في عالمنا العربي. بَيْدَ أن هذا الجنس الأدبي تخلَّق حين تخلق جنساً مرناً منداح الأبعاد، قادراً على الهضم والتمثل والإفادة من فنون أخرى.

وقد وصفه نجيب محفوظ بالفن الذي يُوَفِّق ما بين شغف الإنسان الحديث بالحقائق وحنينه الدائم إلى الخيال... وما بين غنى الحقيقة وجموح الخيال اجتهدت الرواية في أن تحتقب صفات

الأجناس الأدبية الأخرى، وأن تفيد من فنون مختلفة غير الأدب، فالرواية الأمريكية مثلاً تتبادل مع السينما طرقاً مختلفة، والرواية الجديدة في أوروبا تقتبس من الموسيقى طرقاً في التأليف. وبعض الروايات المعاصرة يفيد من تقنيات المسرح، ومن مزايا القصة القصيرة وشؤونها، ومن وهج الشعر ولغته المشحونة وصوره المثيرة ومجازاته الرائعة. وتستطيع الرواية أن تهضم وتستثمر عناصر متنافرة كالوثائق، والمذكرات، والأساطير، والوقائع التاريخية، والتأملات الفلسفية، والتعاليم الأخلاقية، والخيال العلمي، والإرث الأدبي والديني بكل أنواعه، حتى لتكاد تبدو جنساً بلا حدود، إنها كما يرى د. جابر عصفور، الجنس القادر على التقاط الأنغام المتباعدة والمتنافرة والمتغايرة الخواص لإيقاع عصرنا (زمن الرواية، لعصفور، ص 53)، لذا صارت حسب عبارة علي الراعي «ديوان العرب المحدثين».

إنَّ الأحداث التي تشكل الحبكة في الرواية أحداث تشاكل الواقع الموضوعي، ولكنها لا تطابقه، فهي تنقاد بخيوط خفية، لتنتهي نهاية غير اعتباطية، ولتقدّم وجهة نظر، أو رؤية، أو معنى. وقلّما يدخل في القصة حدث ناشز، أو يُحْشَر فيها حشراً عشوائياً موقف لا وظيفة له... إن الكاتب الجيد -كما يقول إدغار آلان بو- «هو من يضع نصب عينيه السطر الأخير عندما يكتب السطر الأول»...

ولما كانت الأحداث مرهونة بوجود شخصيات تفعلها، أو تنفعل بها، أولى النقد الروائي اهتماماً كبيراً بالشخصية الروائية. والشخصيات الروائية لا تبدو كائنات خيالية لا حياة فيها، بل هي كما يقول عنها حنا مينه: «حيَّة تماماً بالنسبة للقُرَّاء، وهي أكثر حياة بالنسبة للمبدعين» (هواجس في التجربة الروائية، ص 111).

وإذا كان الخيال الخالق هو الرحم الذي تنبثق منه الشخصيات الروائية، فإن الواقع الموضوعي، والحياة الاجتماعية، هما اللذان تنتهي إليهما تلك الشخصيات، فكما أن الخيال عقيم دون صلة له بالواقع، فإن الفكر الفني كله دون خيال عقيم أيضاً... وعليه فالمتخيّل السردي يوازي غالباً واقعاً اجتماعياً موضوعياً، ويحيل إليه، كما يشير المحمول إلى الحامل، ويحيل إليه.

وإذ يبعث الروائيون حياة في أبطالهم، يفاجأون أحياناً، بأن هؤلاء قد يفلتون من أيديهم، ويحيون ظروفاً أخرى، ويشقّون دروباً لم تمهَّد لهم، وقد ينطقون بما لا يهواه خالقوهم... ورغم ذلك، فإنَّ إشكالهم قائمَ ودائم، إذ لا مناص من أن ينظر النقاد إليهم على أنهم نماذج تجسّد فكرة، وتُعبِّر عن موقف...

وكما تحيا الشخصيات في الروايات تموت، وفي موت الأبطال في الرواية دلالات كثيرة، حتى أن الموت ذاته قد يتخذ أشكالاً ويصبح إشْكالاً.

إن الانفتاح اللانهائي على الواقع هو الذي يجعل الرواية تتمتع بحرية الحركة والتعبير أكثر من أي جنس أدبي، ويبعدها عن التأطير، ويهيئ فرصة وجود التميز والاختلاف في كل رواية. وربما هذا هو الذي دعا فورستر أن يقول إنه لو اجتمع عدد من الكتّاب حول طاولة مستديرة مثل تلك الطاولة المشهورة في مكتبة المتحف البريطاني، وطُلب منهم كتابة رواية عن موضوع موحد لخرج الجميع كل برواية مختلفة. وربما هذا أيضاً ما دعا فيرجينيا وولف أن تنادي في عهد الحداثة أن أي موضوع يصلح أن يكون مادة الرواية، ولا داعي أبداً أن تتكون مادة الرواية من تلك الموضوعات التي اتخذتها الرواية التقليدية مادة لها مثل الحب، والزواج، والثروة، والملهاة، والمأساة، وغير ذلك من المواضيع المتكررة التي طرقتها رواية العصر الفكتوري.

وتهدف فيرجينيا وولف إلى القول بأن الرواية لا تمتلك، بل لا تستطيع أن تعطي نفسها الحق في القدرة على تقديم صورة كاملة أو حتى شبه كاملة عن الواقع، رغم أنها أقرب الأجناس الأدبية إلى الواقع المعاش وأقدرها على التعبير عنه.

أصبح الروائي في القرن العشرين ينظر إلى الرواية على أنها شكل مفتوح ولكن دون الادعاء أن لديه القدرة على تقديم صورة نمائية أو متكاملة لواقع اللاحدود. وهذا خلاف الاعتقاد الذي ساد

القرن التاسع عشر وهو أن الرواية كانت سبيلاً للسيطرة على الواقع. بينما في القرن الحادي والعشرين... نجح القارئ الذكي في التعامل مع الرواية بما يتناسب مع واقعه ليصبح رئيساً لأكبر دول العالم... متكئاً على روايات مختلفة... كتب من خلالها روايته المفرطة في الواقعية... كقارئ جيد...!

السيل والقطط...!

لا أدري ما الذي أيقظني هذا الصباح الباكر شمال الرياض...

رفيقاي مازالا يغطان في نومهما العميق. الشمس التي أرسلت خيوطها الأولى مع النافذة لم يخبرها أحدهم بأنها تفسد عليّ نومي حينما تغسل جفوني السود بمصافحتها الذهبية كل صباح.

ولست أدري ولن أدري لماذا أكره النور حين يتسلل إلى الداخل دون إذن مني... هل لأنني أبصر الأشياء أكثر من استماعي إليها... فلم أستيقظ يوماً على قرع الجرس أو نداء أحدهم من خلف الباب، لم يدرك هذه الحقيقة سوى والدي الذي يمارس هوايته كل صباح بترك يده تمتد لأصابع النور في غرفتي كي يوقظني لصلاة الفجر بعكس كل إخواني الذين يركلهم حتى يدركوا الركعة الأولى من أولى فرائض الصبح!

هل هو القلق من أيقظني وعبث بصبحي الزاهي؟

هل هو الخوف من الموت قبل الثلاثين، وأنا الذي مازلت أردد دائماً بأن الموت مناسب جداً في الثلاثين إذا كنت قد أنجزت كتاباً يحمل أفكارك وأنجبت طفلاً يملأ مكانك وسط الملعب ولم تقتل نفساً زكيةً بغير نفس!؟

هل هو الخوف من الموتِ غرقاً؟

فآخر رسائل الأصدقاء كانت تحذر من سيول جارفة على البيت الحرام في حج هذا العام... بعد أن ضحكت السماء عدة مرات البارحة وأبرقت كتصريح غير مسؤول ليلة الأمس القريب!

نعم... لقد غرقت مرتين... وكلها كانت على الخليج العربي... كنت طفلاً وكنا نلعب كرة الماء عند المياه الضحلة حتى يغرينا البحر -كعادته- بالتوغل داخلاً... وفي كلتا المرتين كان السيد علي ديريه على الموعد...

في المرة الأخيرة سنة 1999 كان الماء يخرج من فمي ومن أنفي ومن كل فتحات جسديْ التي تعرفونها ولا تعرفونها، وكانت غريزة الأبوة تدفعه ليخرج الماء من صدري كي أعود إلى الحياة... وليته ما فعل!

في هذا العام قابلت الكثير من أصدقاء الطفولة...

وتحدثت كثيراً مع رفاق الجامعة وأقران الثانوية العامة...

مشيت كثيراً -لوحدي- على كتف الخليج، ورغم ذلك زاد وزني بصورة مبالغة حتى أنكرت نفسي في المرآة!

تجاوزت مرحلة الكفاف إلى ساحات الترف مرات عديدة...

أعترف بأن أفكاراً كثيرة سكنت رأسي الصغيرهذا العام، ارتحل بعضها بهدوء... ونحرت بعضها كتابةً، وبقي بعضها كسطور مقفولة فوق الحاجب الأيمن من عيني!

أشكر أمي كثيراً لأنها أحضرت قطاً شيرازياً إلى دارنا في شهر شعبان كي تساعدني على تجاوز فوبيا القطط التي تسكنني...

كانت البداية سيئة ككل البدايات، لكنه الثلث الأوسط من الليل حين أعود وحيداً إلى البيت وأتمدد على أريكة الصالة كي أمارس هوايتي المفضلة... القراءة.

كنت أتمدد وأسرح بخيالي ومواء القطة يتناهي إلى أذني جوعاً... في اليوم الأول كانت الريبة سيدة المكان فلم أطعمها ولم تلمسني!

في اليوم الذي يليه كنت أحضر لها بعض الحليب من الثلاجة... في اليوم الثالث كانت المائدة تضم بعض شرائح الهوت دوج (النقانق)... وأصبحنا بعدها رفيقي ليل!

لا شك في أن أمي الآن فخورة ببكرها الذي لا يخاف القطط، ولا يرتاب من أسلاك الكهرباء العارية كعاشقين على شواطئ اللاذقية!

لكن من يقنع ابنها بأنه لن يموت غرقاً في حج هذا العام وهو لم ينجز شيئاً يستحق الذكر بعده...

إنها لحياة قصيرة أن تموت في السادسة والعشرين أعزباً حارب الشتاء لوحده عقدين من الزمان... ومن ثم جرفه السيل كطبيب لم ينل الزمالة في الحياة...

بخٍ بخٍ... إني لأجد رائحة الموت في عرفات!

باتجاه الكيف... شمالاً!

الكثيرون لم يزوروا العراق يوماً...

ولم يقفوا على ضفاف دجلة... ولا ارتووا من معين الفرات ماءً...

لكنهم يعرفون كوفية الجواهري... وشرود ملامح السياب شعراً... وبهما... تمضي القوافل كل يوم ترد أرض العراق شعراً وماءً ونخيلاً وبحةً ومواويلاً وحنيناً...

إن الشاعر المبدع بنصف بيت من الشعر يخلد مدينة كاملة...

وإن الرسام الملهم يستطيع بريشته أن يرسل أكثر نساء قرطبة تواضعاً في الجمال إلى دنيا الخلود بريشته التي حلت فيها كل أسرار الحياة... فليكن إذاً...

فالشعر هو الحياة... والفن بساط الخلود... وكلما جمحت روح الفنان... كان المرام أبعد...

والغاية أرقى وأصعب.

والحرف هو أكثر آثارنا بقاء وخلوداً بعدنا... لذا في البدء كانت الكلمة... ولذات المعنى والقيمة نذكر من كل اليونان أرسطو ومن كل الهند طاغور ومن القبائل العربية شعرائها...

وروح الشاعر عصية على الفهم، خلودها يستلزم النظر في مكنوناتها التي لا نراها مهما استرقنا النظر...

وكلما مددنا يد التطفل ردتنا حواسنا الخمس بجهلها المطلق... فإننا حينها نتجه شمالاً باتجاه القلب!

هل قلت... شمالاً باتجاه القلب؟

بعد مائة عام من الآن سيكتب المنصفون عن شاعر بدوي عاش في الجزيرة العربية... سيكتبون عنه دون التطرق لمكان ميلاده... فروحه ستظل كما كانت هائمة بين مراعي الشمال وجبال الجنوب...

ستكون قصائده حداء الرعاة... وسيضع المحبون أبياته على جدران المدارس... وسينصف النقاد وطنه الذي جار على مبدعيه النفط لسنين طويلة!

ما القيمة التي يكتسبها شاعر سعودي بإضافة وطنه إليه...

فلنكن صادقين... لا شيء سوى الكثير من النقد والظلم وكثير الإجحاف، وبعض الأكتاف المتجهة نحو نصف الفراغ... وثلث العدم!

بالأمس يتحدث الطيب صالح -عليه رحمة الله- عن غازي القصيبي، فيقول إنه روائي مجيد، ويردف بقوله: إنني منذ زمن بعيد قررت ألا أبالي... وأن أقول بأن هذا البيت لخالد الفيصل، معجز، وأن هذه القصيدة لأمير سعودي جزلة... ثم يتنهد بكل بساطته ويتكئ ليقول: «تصور... حكاية أنك تكون أمير... بقت مشكلة!»

وأنا أقول: تصوروا... حكاية أن تكون شاعراً سعودياً... بقت مشكلة!

وبالمناسبة دعونا نلملم أطراف قصة درويش... ونتفق بأنه كان فيلسوفاً أكثر من كونه شاعراً...

وأن القضية الخالدة حملته على كفوف الريح للمجد أكثر من أبياته وقصائده... وأن وجع الفلسطيني كان حاضراً بين أنفاسه على الدوام...

وصلف اليهودي الغاشم كان يتراءى في كل خبزة أم وقهوة جدة!

ولأن درويش بعيد هناك... في الناصرة... على قبره كل شموع العروبة... وكل أعذارنا الخلقة... وبيننا وبينه:

وجوه يأس
زحام
ألف ساقية
عن ماء وصلك تحدوني
وتمنعني
والعزم
شيخ تولى بعد رحلته
للظل
ما خلته يوماً
سينفعني!

فلنصلِّ خلف روح أبي الطيب التي تملأ المكان... من المعرة حتى جنوب الجبال حجازاً... فهذا الشعر الذي يطوف بنا أرض العروبة كيفما شاء... ويجمعنا على أعتاب الناصرة... نردد:

ترى الشعر إنساناً نبيلاً

وأحرفاً
نخمّرها صدقاً... لتسكرنا نفحاً

إنه أحد القلائل في القرن الحادي والعشرين مازال يعرف نفسه بأنه بدوي... ويفتخر بمذياع والده... وسبحته... وصوت العروبة من مذياع الشمالي الذي أودعه ذاكرة الشعر التي حفظها الراوية وتركها لأبنائه الشعراء أمانة في رحم الذاكرة...

من قصة البدو أوحى الطين سمرته
إليه... فاشتاقت الأحزان تقطفه
يرعى الخيالات... مذ كان المدى لعباً
وطفلة من يد الألعاب تخطفه
صوت العروبة في مذياع والده
عصاه... مسبحة التأريخ... مصحفه
يا رحلة البرد في أطراف مهجته
لطالما أدفأ الأحباب معطفه!

إنه الصدق الذي أخبرنا عنه في البدء... فهو لا يتكلف القصيدة ولا يغازلها أبداً... وكشمالي عتيق... يوقد نار القرى ويصطلي نار الجود... كل الذي يمارسه:

ما بين سجدة جفن واعتدالته
أرى من الحسن ما تغري كتابتُهُ

وكل بيئته العربية حاضرة في شعره... فالخيمة منصوبة... والجياد عند الباب... والشوق يملأ مجلسه... والمعطفِ على أكتاف الأحباب والخلان... ومسمار القهوة شمالي تميزه أُنوف القادمين خلف الهضاب والوديان...

وإذا رأى شيئاً اختزله بنصف بيت... وربما جاد فأكمل الصورة للسامعين:

عصفورة
خصرها... حالي
ومشيتها... حظي
ولي من محياها
مهابتُهُ

وككل الشعراء الغاوين، لا يترك فتيات القبيلة يردن الماء صفواً... لكنه يرسل الحرف بريد محبة... ولحن مساء خجول:

جدائل الليل
ماتت في مناكبها
وفي الجبين هلال
حسنها طلبه
مرت مع النور
والأشياء ترمقها

والحسن يلقي على تلك

الربى خطبه

وفي البيت أعلاه... تقنية يحسنها شيوخ الشمال...

ومن عرف سنا الفضة...

علم كيف يحتار الرشيد ابن عم صاحبنا في لون الشفق المسروق

أو السارق...

وعلى الشفتين تستحيل كل التهم...

بياض براءة للمحبين العارفين!

يعاب على شاعرنا قلقه الدائم... والطرق الدائم على نافذة الشك... واستقامته على شريعة المحبين... فالمحب مولع بسوء الظن كما يقول المرحوم علي الطنطاوي...

وهو في أشهر قصائده فوضى الهندسة يرسل القلق في كل الزوايا... ويمسك بالبتلات التي أحضرها من الناصرة... من قبر درويش

نبتت على سفح انتظاري

وسوسه

والشوق أقلق بالتردد

مجلسه

أتجيء؟

أم بتلات عمري تنقضي

في... اللا تجيء!

تحيّرَ

ما أبأسه

ويظل يفرف من القلق... حتى يرسل قانوناً سرمدياً...

يسري به السراة... ويحفظه الصغار قبل الكبار...

ويردده كل الواقفين على شواطئ الانتظار:

أقسى الخسارة أن تؤمل في الهوى

وتعود... كفك من حبيبك

مفلسة!

ولا يفوت على مثله... الحديث عن الفراق والبعد... كيف لا... والأسفار تعرفه... وخؤولته شعراء الجنوب ورجالها رجال ألمع...

كأنما الله يريد أن يجمع السهل بالوادي... وأن يغرسه بين حبق وديان طيء... ونعناع جبال الجنوب...

فشعره صلب متين كقلاع أخواله... وسهل لين الصورة كمن صافح الفجر في وجه شمالية صباح العيد! ومن عرف شعره... عرف قيمة الناي ساعة الوداع...

وعرف الألوان كيف تكون بالكلمات... ورأى الماء يبلل كل

وجوه الحياة...

أسقي ودادكِ

في قلبي وأكلؤهُ

وفيكِ للصيف والنسيان

أَزرعُني!

الحضارة - البداوة - الشد والجذب - المد والجزر- النفور والاندفاع - القيم المغيبة- الأصالة، كلها مشاعر متضاربة تحشر الشاعر في زاويتها الضيقة، وتهدده بسلاح من الثورة الشعرية لتجبره على الكلام... هكذا تقول عن شعره الشاعرة السعودية المعروفة عبير الحمد ذات نص...

للماء أسئلة أخرى قد انتثرت

في الرمل

لم تحتمل إشكالها... السحب

كذلك نحن في محرابك يا من يعرف نفسه بأن الشوق يزرعه... وأن اليأس يحتطب منه...

أخبرنا بربك يا ابن السبهان... يا سلطان الشعر... من أين أتيت؟! فأنت:

تتقن فكرة التشويق والتمزيق والهجر

وتعرف كيف ترفع هذه الدنيا

بلا عمدٍ

وتزرعنا حكايات ليحصدنا الخريف

فتات أيام من القهر

فهل تدري «أيا سلطان»

بأني لست أدري

والذي فطر النوى

من أين جئت

متى أتيت؟

متى أنخت ركاب حسنك

في زوايا قلبي الموجوع

يا أنت؟!

بعيداً... بعيداً...
ثم ادفنوني هناك!

لا يهمني كثيراً أن أقف على تعريب مناسب لمفردة الصدفة، ولن أغضب عندما أتذكر قول الفرنسي رولان بارت وهو يسخر قائلاً:

« إن الصدفة هي تعريفنا لما نجهل كيفية حدوثه، احتراماً لعقولنا، وابتعاداً بها عن دائرة الجهل...».

يطيب لأستاذ علم الاجتماع الفرنسي أن يسخر منا بكيفه، لكنني أحترم تعريفه أكثر من التعريف القائل بأن الصدفة هي التوقيع الذي يوقع به الرحمن مشيئته!

دعونا من كل هذا وعودوا بنا ألفاً وأربعمائة عام إلى يثرب، حيث يدخل محمد بن عبدالله -بأبي هو وأمي- خالي اليدين إلا من حبل يسير به ناقته التي لا يملك من الدنيا سواها...

ولأن أهل المدينة –التي أصبحت منورةً– بعد ذلك اليوم لا يسعهم سوى التسابق على استضافة هذا القرشي الكريم الذي يوحى إليه... فإن الأيدي بدأت تتسابق لتلقف خطام ناقة محمد بن عبدالله –صلى الله عليه وسلم– للظفر بشرف إقامته عند أول بيت...

وكلنا يدرك أن التاريخ ما هو إلا لحظة نسرقها من رحم الأيام فيخلدنا بين صفحاته وبين جنباته...

أول الأحياء كان بني سالم بن عوف، واشتد اللغط على من يضيف رسول الله وتشابكت الأيدي، وكان أن قال الحبيب قولته المشهورة: «دعوها... فإنها مأمورة»... ثم تجاوز ديار بني بياضة، ثم تعدت حي بني ساعدة، وتأخر الأمر فخسر الرهان بنو الحارث بن الخزرج... وحين وصلوا حي عدي بن النجار... كانت كل العيون تتجه صوب البيت الذي ستقف عنده الناقة المأمورة...

وربما كان الحظ –بناء على نظرية رولان– هو التعريف الوحيد لاختيارها بيت خالد بن زيد المعروف لاحقاً بابي أيوب الأنصاري لتنوخ أمامه!

هذا الأنصاري المحظوظ لم يكن يملك في سجله سوى أنه كان في السبعين الذين بايعوا الرسول الأمي في بيعة العقبة

الثانية... وحتى هو لم يكن مستعداً لكل هذا الشرف الذي أناخ ببابه على هيئة ناقة مأمورة!

لا أحد يستطيع تجاوز نقطة الحظ هنا... حتى أكثر الكارهين للفيلسوف الفرنسي الكبير...

كل كتب التاريخ تذكر كيف أن القلق نهش فؤاد أبي أيوب ليلتها... ذلك أن رسول الله اختار الطابق الأرضي ليبات فيه... ولكن الضمير الحي لهذا الرجل أبى أن يستريح... إذ كيف تبات الرسالة وكيف ينام مع زوجته وصغاره فوق الغرفة التي ينام بها أشرف الخلق وخير خلق الله كلهم... وربما كانت هذه حالة صوفية خالصة لمن يريد النظر إليها بنظر العارف... ولكننا سداً للذرائع سنتجاوزها ونخبركم بأن الرسول صلى الله عليه وسلم تفهم موقف أبي أيوب ونام في الطابق الثاني...

يقتلني الفضول وأنا أتساءل: لماذا لم تبرك الناقة بباب عبدالله بن أبي سلول مثلاً... ولماذا تجاوزت دور عقلاء الأنصار ووجهائهم وأناخت بباب رجل مغمور في حسابات المدينة آنذاك؟

يذكر المؤرخون أن أبا أيوب كان رجلاً من عامة المسلمين... وأنه كان راويةً للحديث... عمّر طويلاً... فلم يخض في لسانه فتنة، ولم تهف نفسه لمطمع، قضى حياته بين أشواق عابد، وعزوف مودع.

في الفتنة وقف مع أبي تراب علي بن أبي طالب -كرم الله وجه- لأنه كان يرى الحق معه، لكنه قضى سنين طويلة يذرف الدمع حسرةً على رفضه الانضمام لجيش سيّره معاوية بن أبي سفيان إلى ثغر من الثغور، وتخلف عنه أبو أيوب لأنه كان يرى أن الأمير صغير على معركة كتلك... ولكن الندم لزمه حتى حفظ جلساؤه عبارته الشهيرة: «وما ضرك لو أطعت يا أبا أيوب!»

كان يلقن أبناءه قانون الحياة الذي ورثه من سيد البشر:

«إذا صليت فصلٍّ صلاة مودع

ولا تكلمن الناس بكلام تعتذر منه

والزم اليأس مما في أيدي الناس...».

المعلومة التي قد تصدم أكثر الروائيين حبكة للنصوص هي أن خالد بن زيد لم يدفن في البقيع، ولم يمت في بيته الذي بات فيه محمد خير الخلق أول لياليه في المهجر... ولم يصبح خرفاً عاجزاً بعد أن جاوز التسعين عاماً حال رجالنا هذه الأيام...

إن فكرةً واحدةً عظيمةً قد تنقل أعرابياً نحو الخلود... وإن فكرةً واحدةً مليئة بالغباء قد تكون كارثيةً على أكثر الرجال ذكاء في هذه الدنيا...

إن المسلمين العظماء يستمدون قوتهم في المقام الأول من دين عظيم اسمه الإسلام... فبدون رسالة محمد لكان خالد بن زيد أعرابياً يقطع الطريق أو نكرةً من نكرات التاريخ!

كان جيش المسلمين على مشارف استانبول -عاصمة تركيا العظمى- حين سأله يزيد بن معاوية أمير الجيش عن حاجته... فما كان منه إلا أن طلب طلباً غريباً لم يسبقه إليه أحد...

«اذهبوا بجثماني بعيداً... بعيداً... في أرض الروم... ثم ادفنوني هناك»!

لقد طلب أن يوضع فوق فرسه -بعد استشهاده - وأن يجري به الفرس في أرض العدو، فإذا وصل إلى آخر نقطة دفن هناك...».

فَلَمَّا مَاتَ رَكِبَ بِهِ، ثُمَّ سَارَ بِهِ، ثُمَّ دَفَنَهُ.

وَكَانَ يَقُوْلُ: «قَالَ اللهُ ﴿انْفِرُوا خِفَافاً وَثِقَالاً﴾ (التوبة: 41) لاَ أَجِدُنِي إِلاَّ خَفِيْفاً أَوْ ثَقِيْلاً».

إن هذا التفاني في خدمة الفكرة التي عاش من أجلها كل تلك السنين يذكرني بالموقف العجيب في سورة يس حين يقول الرجل المذهل حتى بعد موته: ﴿يَا لَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ * بِمَا غَفَرَ

لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُكْرَمِينَ﴾ (يس: 27-26)... إنه يتمنى حتى بعد موته أن يعرف قومه ماذا وجد ليلحقوا به!

ولن يثنيني باب سد الذرائع عن إخباركم بهذه المعلومة الصوفية... حيث يذكر المؤرخون بكل حياد هذه العبارة حين يتحدثون عن قبر خالد بن زيد رضي الله عنه: «وكان الروم يتعاهدون قبره، ويزورونه، ويستسقون به إذا قحطوا».

لو كان رولان بارت بيننا لاعترف بأن نصب الجندي المجهول الذي يقف عليه الرؤساء ليس في باريس ولكنه في استانبول لأنصاري يستغاث بقبره!

ولنعلم بأننا كبشر عاجزون لأننا مزودون فقط بخمسة حواس تجعلنا نبدو كالأطفال أمام أسئلة الكون العظمى...

ولو أننا قرأنا حياة أبي أيوب قراءة متأنية لعلمنا بأن الناقة التي وقفت ببابه وأنالته ذلك الشرف الذي حسده عليه العرب ما كانت إلا تكريماً مبكراً لرجل ستمضي به الحياة... وسيمضي به فرسه... حتى ينام بهدوء في عاصمة الخلافة العثمانية بعد قرون...

إن الأفراد الذين يختارون معاركهم في الحياة وفقاً لقناعاتهم العميقة يحدثون فرقاً كبيراً على الدوام...

والمستعدون للموت تجاه فكرة آمنوا بها... هم أخطر من مشى على قدمين، فالموت يبدو قصيراً أمام قمة الأفكار الكبرى في الحياه، تلك التي تهزنا هزاً، وتصرخ فينا: لا تعيش الأفكار إلا على جثة أو جثتين يارفاق!

ولعل فرس أبي أيوب لم تنم بعد سيدها أبداً... ربما شرفت نفسه لركوب البحر... ذاك العجوز الأعمى... الذي أصبح شاباً في العشرين حين جاءه الشرفاء من كل أرض... ليكسروا الحصار على غزة... فأبصر كل شيء!

أبو طيب... وحده أعاد ذكرى الخطب التي تخلي الشوارع من المارة... كانت ارتجالية... ولم يكن عليها ختم الخارجية الأمريكية في أعلى الورقة...

أردوغان وحده... بلسان تركي مبين نفض جلبابه من كذب اليهود، ومد ذراعاً يمنى طويلة لنصف مليون بعد المليون نال منهم الضيم قبل الجوع، ونال منهم قهر الأعداء وجبن الأصدقاء!

في الشطرنج: لا تلم إلا نفسك إذا انهزمت، والسياسة فن استنزاف الخصم...

تركيا هي من يحرك أولاً... وتتقدم على شعب موسى منذ أن آوتهم من شتات الأرض قبل قرون... إن رد الفعل حيلة الضعيف... هكذا قالها رجب... هلال هذا العام!

من الأردن والجزائر ومصر العروبة وكويت الحرية قدموا... رجالاً ونساء... يلملمون بقايا كرامتنا... يخوضون البحر بعد أن امتدت سنون أربع... بان فيها الناجذ والضرس... وطال الليل على سكان أكبر معتقل بشري في التاريخ!

أعلى معدل إنجاب في العالم في قطاع غزة، والفلسطينيون أكثر العرب حصولاً على شهادات تعليمية رغم شتاتهم... حينما تكون أمام الكم والكيف، فلا سلاح إلا التجويع والتشريد والقتل والإذلال... هكذا تقول يهود...

فماذا يقول رائد صلاح -فك الله أسره:

إنا باقون... ما بقي الزيتون والزعتر!

من البحرين... أرض الطيبين... ارتحلوا... تلك الجزيرة التي بالكاد ترى على الخريطة... ذهب شرفاؤها ليذكرونا بأن القضية واحدة... وأن العروبة دين قبل أن تكون دماً...

وأنهم لا يسألون أخاهم حين يندبهم في النائبات على ما قال برهانا.

من الكويت قدموا أحراراً كما كانوا... تتقدمهم فصيحة كريمة الأصل تدعى هيا الشطي لا تقول سوى جملة واحدة لكل من يسألها: ماذا جاء بك إلى هنا؟

«غزة آخر قلاع فلسطين... كما كانت غرناطة آخر قلاع الأندلس...».

كاليوم الذي سبق الطوفان، حين كان نوح وكانت السفينة... مر الكثيرون وسخروا... كانت الطيور بأزواجها... كان فيها من كل زوجين اثنين... مثلها... كانت مرمرة... تلك السفينة التركية التي حملت الغذاء والدواء، المساكن الجاهزة وألواح الخشب ومقاعد المقعدين... كانت سفينة حياة... ولكن الطوفان كان أمامها!

ستبكي إسرائيل دماً لأنها وقعت في فخ كبير، فلو دخل المتطوعون لخلّدهم التاريخ، ولو قُتلوا لخلّدهم في الشهداء، ولو عادوا لعادوا بطائرة أميرية كما فعلت الكويت.

أظنها مكيدةً نسائيةً بامتياز... فالرجال لا يطيقون صبراً على كل هذه التفاصيل!

أحزنني كثيراً أن نتقاسم مصطلح «القرصنة» مع العدو الصهيوني. أعدكم بأن نتركها لهم بعد أن يستتب الأمن في آخر قلاع الدولة العثمانية جنوباً... ذلك الميناء الذي كان يسمى «بندر عباس» والذي كانت تصله الأوامر رأساً من استانبول حاضرة العالم الإسلامي... قبل أن يموت الرجل المريض وتبقى الصومال دولة مريضة في خاصرة العالم الجديد!

فلسطين جرح قديم وكما قال إيليا:

إن طال عهد الجرح صار صديدا

وعندنا في الطب أن الجسم يرفع درجة حرارته عندما يتعرض لهجوم جسم غريب عليه، فيقتله بالبيئة الجديدة التي تنكرها الجرثومة فتهلك حينها وتموت...

وما إسرائيل إلا جرثومة قد تورطت بجيل جديد... يرفض الخنوع كسابقه، يدوس على المعاهدات ويأتيه في عرض البحر... أعزلاً إلا من التوحيد... وحيداً إلا من الله... يجعل النفط في يمينه... وغزة في قلبه وأمام عينه... إنها حمى الحق تصيب أحفاد القردة... صباح السبت!

إن التاريخ يصنعه الخارجون على القانون... حتى لو كانوا عزلاً في عرض البحر... ولأهل مرمرة قصة سارت بها الركبان... قبلي... ومن بعدي.

وبعد أن نحرر غزة والأقصى... لن ينسى المنصفون دور المناضلين الأوائل... وربما يذكر الروم المنصفون تلك الكويتية التي وقفت معهم طويلاً على المعبر... وسجدت على أرض فلسطين ساعة العبور... وما يدريك لعل قبراً يستسقى به... يبنى كل يوم تحت الجدار العازل!

العذّال... هؤلاء التافهون

نصيبُك في حياتِكَ مِنْ حبيبٍ
نصيبُك في منامكَ مِنْ خَيالِ

أبو الطيب المتنبي

إن كان هذا البيت لأبي الطيب معادلةً من الدرجة الأولى فإن «الزواج نصف الدين» معادلةٌ من الدرجة الثالثة أعيا الأعزب إيجاد قيمة طرفها الثاني... واحتار المتزوجون في إثبات الحل بعد أن امتلأ وجهُ الورقة وقفاها بكل الطرق المتاحة للحل!

وبعض المتطرفين في التفاؤل ممن يؤمنون بأن النصف يُجبر حتى يصبح واحداً يستدلون بأن حياة الرجل تستقيم بعد الزواج... وأن ذهنه المشوش يصفى... فلا يعود للشيطان عليه سلطان... ولا سبيل... وهذه حجة صائبةٌ بعض الشيء... غير أن أكثر ما يعيبها وينفرني عنها أن العذال -وهم من هُم في الكره

والغباء وثقل الروح- يشكلون نسبةً كبيرةً من المسوِّقين لهذه الفكرة...

وكما تعرفون فإنه لا أخطر على الفكرة الجميلة من مقتنعٍ غبي يناضل عنها كلما تيقن أنها اقتربت من فهمك... تراءى لك طيفُها مودعاً ومبتعداً عن ذهنك المحموم أصلاً بروحه الثقيلة...

والعذال لمن لا يعرفهم: مجموعة بشرية تتكاثر في مناطق الغباء... وتقتات على نصح المحبين وإقناعهم بحلول منطقية تقود دفة الحب إلى الميناء الأخير الذي قد يكون الزواج أو الفراق على حد ما يرونه أسلم وأنفع!

وهم قديمون قدم الحب الأول... وأزمتهم تتلخص في حشرهم المنطق وهو علم مجرد في بحر لا يستقر قاعه ولا يقر قراره... بل ويستعصي على العقلاء تعريفه... فالحب هو المادةُ الأولى لكل أدبيات الدنيا...

تعب الأولون في تعريفه فاخترعوا الشعر لأنه أكثر الطرق تمرداً على اللغة والمنطق:

«ويُقْضَى بما يَقضِي بِهِ وهُوَ ظالِمُ»

ثم اختلفوا عليه إلى أن أذن مؤذنهم نزار مصرحاً:

الحُبُّ في الأرضِ بَعضٌ مِنْ تَخَيُّلنا

لو لمْ نَجِدْه عليها لاخترعْناهُ!

والعاشقُ في تيهه مستريح... لذته الألم... ومتعته الضياع كلما اقترب من الميناء كسر المجذاف ومزق الأشرعة ودعا بدعاء الريح معكوساً «اللهم علينا ولا حوالينا»!.

إن كل من يحول بين المحبين عاذل سواءً كان شخصاً أو فكرةً أو اقتراحاً أو حتى لحناً عابراً يهدد استمرار الحالة الذهنية الجنونية المدعوة حباً! و«عشاق النصيحة» يقدمون استشاراتهم مجاناً وعلى بساط الأحمدية وحجج الخوف عليك وعلى مستقبلك...

وهم -للأسف- لا يكلّون ولا يملون ويجتهدون بقدر الصد... يزيدهم الإعراض إصراراً في توصيل النصيحة بكل الطرق والسبل... ولأن كلام الحكيم حماقةٌ في نظر المجنون كما يقول أورفيوس فإن الحماقات الصادرة منهم لا تزيدك إلا صدّاً وإعراضاً... ولسان حالك قول أبي الطيب:

«إنَّ المُحِبَّ عَنِ العُذَّالِ في صَمَمِ»

كل الذي نعرفه أن ساعاتنا في الحب لها أجنحة، ولها في الفراق مخالب... لذا نحلقُ بعيداً عنهم في ذروة الحب...

ونهبط بعيداً عنهم لتطبيب جراح الفارق إذا استلزم الأمر... وهذا لا يعني أنهم بعيدون... فهم أقرب ما يكونون حينما لا تحتاجهم!

أعرف صديقاً عزيزاً ينتظر عودة حبيبته من سفرها كل عام ليهنأ بالسلام عليها للحظاتٍ يعيش عليها حتى العام المقبل... تعثر هذا العام بضيف عابر جلس في منتصف المسافةِ بينهما... فلا هي أقبلت ولا هو تجرأ بالسؤال عنها... وأخونا العاذل متوسط المجلس كالقدر لا يدفعُه حتى الدعاء... وكأنه لا يعلم ألم ساعات الانتظار التي يبدد قيمتها بجلوسه الفارغ هذا... تجمدت أطرافه من برودة الانتظار ولكن الحظ لم يكن على موعدٍ مع صديقي الذي خرج يلعن كل الدروب التي قادته ذلك اليوم ويؤكد على أن حظه أتعس من حظ النصر مع البطولات...

فكلاهما ينتظر عاماً كاملاً ليعوض نتيجة ما فقد!

كل الشعراء -بلا استثناء- ناقمون على العذال...

ولأن غباءهم غير مبرر، حاول أبو الطيب تقديم نصيحة مفادها:

لا تَعْذِلِ المُشْتَاقَ في أشوَاقه
حتّى يكُونَ حَشاكَ في أحْشائِهِ

إنَّ الحَبيبَ مُضَرَّجاً بدُمُوعه

مِثلُ القَتيلَ مُضَرَّجاً بدِمَائهِ!

وهذا طلب استثنائي وتعجيزي لا يمكن أن يخطر لك على بال، سوى أن تكون في حالة تعاطف مع ضحايا العذال الكثيرين... لتجلس مستمعاً إلى عازف العود الأول وهو يتقطع ألماً ويعزف:

حبيبتي...

كل العواذل تشابه

قلب ظلام...

ووجه يشبه للأصحاب!

أصدقائي المحبين:

كل عام وأنتم بخير...

كل عام و«العواذل» في أسوأ حال!

الرابعة انتظاراً

مارست غبائي باحتراف هذه المرة يا صديقتي...

لقد حجزت على طائرة الصباح وأتيت بكامل أناقتي وسط المساء...

حلقت ذقني الصغير... مشطت شعري الأقصر... أحضرت روايةً وقعت على غلافها قبل عام: وطني... إلا قليلا!

تدرين: في طائرة تعج بكل الجنسيات، من الجميل أن تحضر رواية عن وطنك... فلا أنيس في الغربة مثل الأدب.

ضحك مني المضيف الأرضي... هل هذا هو اسمه؟

لست متأكداً... لكن لماذا لا يرسلون الذكور للطائرات، ويريحوا الجنس الناعم من التجوال في السماء؟ خاصة العازبات منهن...

تلك الكلاب الضالة يجب تنظيف الأرض منها وإرسالها بعيداً... فوق... هناك في السماء!

بدا مرتبكاً وهو يدون بيانات تذكرتي الإلكترونية...

نسيت أن أخبرك، لقد تعلمت كيف أحجز لنفسي على متن الطائرة وأنا منبطح على بطني أنتظر شاي أمي العتيق، لقد أصبحت إلكترونياً أكثر، أصبحت عجوزاً أكره كثرة الكلام في الهواتف النقالة، أردُّ برسائل قصيرة على البعيدين وأحضن أصدقائي عندما أقابلهم مساءات الخميس...

ابتسم وقال: رحلتك كانت فجر اليوم يا سيدي... نحن في الرابعة إلا ربع مساءً!

سألته: هل توجد خانة بجانب الساعة المكتوبة... هل اختصرتم الصبح الجميل بحرف الصاد العجوز...؟ وهل كنستم بذيل الميم كل مواعيد المساء؟

وجهني بنظرة إلى ركن بعيد...

بها أربعيني يكلم صديقته -في ظني السيء- أمام المراجعين...

تعرفين أننا نسيء الظن في موظفي الخطوط والاتصالات والدوائر الحكومية... ولا يلومنا أحد!

لقد غرموني 98 ريالاً... وساعتي انتظار!

لطالما أخبرني والدي عن وهم الإنترنت وبطاقات الفيزا والوجوه المطلة خلف الشاشات البعيدة، لقد كرهت الحجوزات الإلكترونية وأحببت والدي أكثر!

في موقع وزارة الخارجية أرسلنا دعوة لقدوم خالي عمر -البريطاني- إلى السعودية منذ عامين، فعلنا كل شيء ولم نفلح، بعد يأس طويل، ذهبنا إلى مكتب استقدام وتخليص للتأشيرات.

ضحك حين أخبرناه عن موقع الخارجية والساعات الطوال خلف الشاشة الإلكترونية...

لم يطلب الكثير... طلب ملفاً –علاقي- أخضر، ألف ريال، وصورة لجوازه... خالي عمر في طريقه إلينا بعد شهر من الآن!

لن تجدي هذه القصة مذيلة في تويتر بـ« ق ق ج»، أنا أرويها بإسهاب تماماً كساعتي الانتظار أمامي!

في المطار...

لن أكتب شيئاً عن المطار وكوستا والبرد هنا...

إذا فعلت وكتبت... ماذا سأترك لأصدقائي المدونين؟

وماذا سأترك لثرثارات الصبح حين يضعن كوب قهوة... وجملتين بلا معنى -كقطعتي سكر، أمام شيخ مبتور الإصبع من السكري- صباحات الفيسبوك... واختياراً لفيروز؟!

لقد قررت أن أسامح الشتاء، المطارات، وساعات الحنين الوداعية... ليس من العدل أن نكتب جميعاً عنهم يا صديقتي... أليس كذلك؟!

الحمدلله أنني ذاهب إلى جدة... لو كنت ذاهباً إلى الرياض... لصفعت الرياض كما يفعل الجميع هذه الأيام.

كم هو مؤلم ركل مؤخرة عانس كالرياض!

ربما أجد مقعداً على طائرة السادسة، وربما على طائرة الثامنة... وربما... دعينا من ربما الآن...

عوقبت بمائة ريال سعودي لقدومي متأخراً عن طائرتي بنصف نهار... هل قيمة التأخر نهاراً كاملاً تساوي 196 ريالاً يا صديقتي؟

ماذا عن تأخر أسبوع؟

شهر؟

سنة؟

ماذا عن تأخر عمر بكامله عن موعد للعمر!؟

ثم لماذا الريالان الهاربان من المائة؟

هل هما لتصعيب التأخر على الناس؟

أم لإتعاب الموظف الكسول -مازال يكلم صديقته حتى الآن- صدقيني...

إنها صديقته الثالثة في ساعة واحدة...

دعيني أقترف بعض الظنون... إن الظن لا يغني من الحق شيئا!

تريدين وصفاً للمكان... كما كنت تفعلين دائماً في نصوصك؟

الحق أن المطار كبير جداً، كخريطة السودان قبل الانفصال...

الناس... متشابهون كصوت عبادي في كل أغانيه الحزينة...

أنيقون بلا سبب... كالمصريين بعد رحيل حسني...

ساخطون لا يسلمون... ككل القادمين من الرياض إلى الخبر!

هل قدرنا العيش في الانتظار والمطارات... تباً لي... لن أتكلم عن المطارات كما يفعلون... سأعود إلى صوت أبو أصيل وهو يغني بتعب ويبكي ككل اليمنيين المجهدين: تعبت مني المطارات!

هل قدرنا القدوم بعد الموعد بنصف نهار... بلاغ!
ما أقصر العمر حين نأتيه متأخرين بعمر...
وما أتعسه حين نقضيه بالانتظار...

ترحل كل الطيور ونبقى... كلقلق فقد صوته... فنسي حزنه... ونسيه السعداء!

هنا رجل مدين للفيس بوك

من نافلة القول أن أذكركم بأن اليوم هو عيد ميلاد محدثكم -معالي السعادة- أبو الدراري، ولكن قبل البدء بالحديث عن تجربتي مع الفيس بوك لمدة عام ونصف أود أن أخبركم أنه في الثانية ظهر اليوم أتاني طلب إضافة من هذا العالم الافتراضي، وبعد قبول الإضافة مباشرةً وصلتني رسالةً على الخاص مفادها:

أخي الكبير محمد، لقد تعبت حتى وجدتك في هذا العالم الكبير، أنا سعيد لأني وجدتك، سلم على أبي وأمي!

ولأن معالي السعادة محاط بالكثير من الإخوان والأخوات غير الأشقاء حول العالم، فإنني ابتسمت ورديت عليه بمكر: «لقد نامت أمي، ووالدي كما عهدته لا يمكنه التفريط بقيلولته للرد على سلامك، ولكني سأفعل».

وفي ظرف دقيقتين كانت الرسالة الثانية منه: «هذا الذي

تراه هو لقبي بين أصدقائي، ولكن بإمكانك أن تناديني محمود... أخوك الذي كان ينام بالسرير الذي يجاورك قبل 16 عاماً!».

كان آخر ما توقعته منذ دخولي عالم الفيس بوك أن أصادف ابن عمتي زهرة ديريه، محمود، ذلك الطفل الجميل الذي كان يتقاسم معنا الغرفة أنا وشقيقي أحمد...

كنت حينها في الثالث الابتدائي، وكان أحمد في الصف الثاني بينما كانت كل مشاكل محمود تتلخص في كونه لا ينطق الحروف العربية بشكل صحيح، فأغلب أسنانه قضى عليها التسوس قبل أن يجلس للدراسة، كان وحيد أمه، وكان مدللاً دلالاً جميلاً... فعمتي تدلل كل من يقترب منها...

عندما أصبح محمود في الصف الثاني الابتدائي تزوجت عمتي وأنجبت عبدالرحمن، الأخ غير الشقيق لمحمود، وقرروا بعدها السفر إلى هولندا حيث تبدو الحياة أجمل لكل الناظرين من بعيد!

لم ينقطع اتصال عمتي بأبي وأمي، ولكن تبقى إحدى أعجب صفات المخلوقات الصومالية -وأنا أولهم- أنهم متميزون جداً في التواصل المباشر، وهم كباقي البشر لا يحبون الوداع لكنهم لا يبكون فيه أبداً، والأعجب أنهم لا يتواصلون معك أبداً إذا

ابتعدت عنهم أو طال الغياب بينكم، إنهم يبدأون حياتهم الجديدة ويتفاعلون مع اللحظة الماثلة أمامهم بكل إخلاص...

كل هذا، لأخبركم بأني لم أتواصل مع محمود قبل ظهر البارحة!

لقد راودته فكرة البحث عن اسم عائلة أمه المبعثرة على الخريطة وحين كتب Diriye اصطدم بابتسامة -معالي السعادة- أمامه، لم يتردد طويلاً كي يطلب الصداقة لأنه رأى عيني خاله علي ديريه أمامه كما أخبرني!

في أول تعليق له على صورتي أمام باب شريف بجدة كتب هذا التعليق: «أنا حزين لأني لم أعد أستطيع قراءة اللغة العربية، أشتاق كثيراً لتلك الأيام... وتلك الأماكن حيث يمكنك شراء الكثير من الأشياء بريال واحد!»...

طبعاً لم أفجع محمود بسعر البيبسي الذي أصبح ريالاً ونصف، ناهيك عن باقي متطلبات الحياة، ولم أخبره بأن معظم الأشياء الجميلة تسير في طريقها للزوال...

حتى في يوم ميلادك، لا تستطيع سوى الاستعداد لمفاجأة من هذا العيار، ابن عمتك بجوازه ولغته الهولندية يعلق على صورتك أمام باب شريف... أقدم آثار جدة بعد السيل الأخير!

هذه القصة تنعشني لأنها حدثت بالأمس، ولكن الالتقاء بأصدقاء من كينيا، ولبنان، واليمن، وبوروندي، وغينيا، وموريتانيا، والبحرين، والكويت، والبوسنة، والهرسك، وداخل الخط الأخضر من فلسطين الأبية، والكثير من عرب المهجر، وكذلك من زملاء الدراسة بالسودان الجميل، يشكل مصدراً كبيراً للسعادة بالنسبة لي...

لا أستطيع أن أنسى سارة يوسف، تلك الفتاة السودانية الذكية جداً والمحافظة لأبعد الحدود، اكتشفت أنها تهيم بأبيات أبي الطيب وصور إيليا عندما استعرت مذكرتها في مادة الجلدية كي أصور منها بعض الأوراق، وكان أن وجدت في أسفل كل درس بيت شعر من اختيارات الرائعة سارة... ضاع الليل كله وأنا أتأمل بيتاً لأبي الطيب على قبره شآبيب الرحمة:

وتركك في الدنيا دوياً كأنما

تدول سمع المرء أنمله العشر!

وضعت مراجع الجلدية تحت السرير وتفرغت لمحمود شاكر وهو يشرح هذا البيت الجميل، عندما أخذت C+ في نهاية العام لم أغضب كثيراً... شكرت سارة وارتديت ثوب القناعة لأن صورة أبي الطيب كانت قد اكتملت في ذهني...

يسعدني أن أخبركم بأن سارة قد أضافتني منذ شهرين وأنا سعيد لأني أزور صفحتها بين الحين والآخر...

إن الالتقاء بأصدقاء يشاركونك نفس الهوايات والاهتمامات فكرة تؤرق الكثيرين حول العالم...

بالنسبة لي يستحيل أن أجد صديقاً مهتماً بالتجديد الديني ويعشق أبا الطيب، ويشجع برشلونة ومهووساً جداً بالشعر والطرب الأصيل حد الاحتفاظ بعدة تسجيلات لعمل فني واحد، ومغرماً بأحلام مستغانمي وإيزابيل الليندي والطاهر بن جلون مرةً واحدة!

لا أقول لكم بأني وجدت نصفي الآخر -والذي من الغباء البحث عنه- في الفيس بوك، ولكنني وجدت أكثر من نصف ونصف ونصف ونصف!

بخصوص مشروعي الخاص والأهم بالنسبة لي، وهو رفع سقف ثقافة الشاب الصومالي الذي يتحدث العربية كلغة أولى، فإني فخور جداً بمنجزات مجموعة «الصوماليون العرب» التي أشرف عليها مع صديقي محمد موسى المقيم بلندن، والذي يزوره أكثر من 1522 عضواً حتى الساعة...

والصور التي التقطتها في زيارتي الأخيرة للوطن لم يكن بإمكاني تقاسم جمالها وجمال التعليقات عليها في برنامج غير

الفيس بوك... لقد رفعت 195 صورة في ظرف عشرين دقيقة، ومازلت أستمتع بردود الأحبة من وقت لآخر...

لا أريد أن أطيل وقد فعلت، ولكن هذه بعض النصائح التي اختصرتها من تجربتي المتواضعة:

1 - الفيس بوك برنامج تواصل في المقام الأول، وتعارف في المقام العاشر.

2 - من بين كل البرامج هو أسهلها توصيلاً لفكرتك وبإمكانك مناقشتها مع من تحب.

3 - الفيس بوك سلاح ذو حدين... يوجد به كبار المثقفين... وتنشط بين جنباته عصابات الدعارة والشذوذ والإلحاد وقلة الأدب... أنت وحده من يختار الحد الذي يناسبه.

4 - القادمون بعقليات المنتديات وخلفيات الأسماء المستعارة لا مكان لهم في الفيس بوك، مصيرهم العيادات النفسية... ولو بعد حين.

5 - قبل أن تقبل صديقاً جديداً زر صفحته وتنقل فيها، فإذا كان الأصدقاء المشتركين جيدين وعقليته جيدة قياساً على لغته وطرحه... فإنك أمام طلب يستحق الموافقة عليه.

6 - المزعجون وثقلاء الدم... لا مكان لهم في الحياة اليومية... ناهيك عن الحياة الافتراضية... إن الحياة قصيرة... احذف واستخدم خاصية الإخفاء بامتياز.

7 - لا تشارك في المجموعات سوى تلك التي تظن أنك ستخرج بفائدة من مراسيلها المتكررة.

8 - الفيس بوك سارق كبير للوقت، حاول أن تجعل له وقتاً محدداً أو متفرقاً شريطة ألا يجاوز الساعة في اليوم.

9 - اترك مساحةً للمفاجآت في حياتك دائماً...

10 - الشات أو برامج المحادثة في الفيس بوك -بالنسبة لي- سخيفة وبطيئة جداً... وتضيع الوقت كثيراً، جمال الفيس بوك في أنه للتواصل غير الآني، أي أنه يختلف تماماً عن الماسينجر ورسائل الجوال.

11 - المقالات وتدوينات الأصدقاء وروابطهم مهما كانت ثقافتهم... لا تغنيك أبداً عن القراءة الجادة... لا شيء يعدل العقل القارئ.

12 - لا تقبل مديرك في العمل مهما كلفك الأمر.

13 - تمرس على الكتابة من خلال التدوينات وتقبل النقد، فهو صادق غالباً في الفيس بوك.

14 - لا قيمة لصفحتك إذا لم تكن متذوقاً للصور، أو لم تكن تملك كاميرا Canon حتى هذه اللحظة!

15 - اجعل خصوصية الصور عالية جداً... أما التدوينات فافتحها للجميع... إنما خُلق الحرف حراً يا صديقي...

16 - تذكر دائماً أن أجمل القصص هي تلك التي لم تُكتب بعد!

صوت الخليج... أن تطرب أكثر!

اليوم الموافق للثاني من نوفمبر، وعند الثانية الثانية من الدقيقة الثانية بعد الثانية ظهراً تحتفل إذاعة صوت الخليج بعامها الطربي الثامن...

لن يشاركها في ذلك سوى أهل الخليج وساكنيه من البحرين والإمارات العربية المتحدة ودولة قطر، بالإضافة إلينا سكان المنطقة الشرقية من المملكة العربية السعودية...

منذ الصغر ونحن ندين للموقع الجغرافي للخُبر حين أصبحنا ذات يوم وقد اتكأنا على الخليج بحراً... فكانت فضائيات البحرين تشكل مخارج الحروف عندنا، وكانت قناة «أرامكو» السعودية تجبرنا على متابعة دوري المحترفين الأمريكيين للسلة، وأحياناً نطلّ على آخر الأفلام من قناة «أبو ظبي»، بينما كان يعيش أصدقاؤنا في ربوع المملكة على مسلسلات القناة الثانية والتي يزورك النوم قبل أن تصل لأول حوار بين البطل والشرير فيها.

كنا ننام على -باب البحرين- والمقدم يتلو علينا أسماء الصيدليات المناوبة في الرفاع والمنامة... بينما يتململ الناس من النشرة الجوية على القناة الأولى وحسن كراني يتكلم عن سحب تحوم حول المندق، ورياح على صبيا وتخوم أبي عريش.

لقد كان اللاقط الهوائي أو -الأريل- فصلاً جميلاً من فصول ذاكرتنا الثقافية، كنا نطلع على السطوح بينما يوجهنا الآخرون وهم يمدون رقابهم من النافذة حتى نصوبه نحو التردد المناسب فيذهب التشويش، ويعود الصفاء للأعين قبل الشاشات.

كنا حينها نتابع مسلسلاً واحداً نعرف كل أبطاله، وكنا ننتظر أم كلثوم لتصدح قبل ساعة الختام على أغلب القنوات العربية، وكنا مشغولين بالدوريات المحلية...

كان النصر حينها نصراً، وكان الهلال هلالاً، وكان الاتفاق -فريقي المفضل- يمثلنا أهل الشرقية خير تمثيل. كنا في أيام توقف الدوري السعودي نميل قليلاً على جد حفص وفرق الرفاع والحالة ونشجع الدوري البحريني لأن قناة البحرين كانت أصفى بكثير من التلفزيون السعودي في بيتنا...

كنا نحفظ نشيد قطر لأن فرقتهم الموسيقية تجبرك على الترديد، ونشدو مع عمان بفرقة الأوركسترا التي أذهلت العالم

فيما بعد، ومازال نشيد الكويت أجمل الأناشيد في الخليج على الدوام.

كبرنا و كبرت معنا الاختراعات، ففزتنا الصحون الفضائية، وتساوينا مع الجميع في ذاك الجمال، لكن شيئاً واحداً بقي محصوراً على الخليج وساكنيه، إنه صوت الخليج، أجمل الإذاعات الطربية على امتداد الوطن العربي أجمع...

ما أجمل أن تدير محرك سيارتك لتبدأ صباحك مع الجميلين عبد السلام جاد الله والفنان البحريني الحبيب إبراهيم حبيب في برنامجهما الرائع «طربيات» وهما يلبيان طلبات الجمهور من الأعمال الفنية التي رسخت في ذاكرة أهل الخليج ووجدانهم...

من يستطيع إخبارك بعدد الجنسيات التي يحملها وديع الصافي، ومن سينبش في الذاكرة ليخبرك بأن اسمه فرانسيس، وأن سعاد حسني هي شقيقة صوت الحب نجاة الصغيرة سواهما؟

من سيقول لك إن قصيدة «لا تكذبي» للشاعر كامل الشناوي هي نتاج قصة حب من طرف واحد. كان كامل مغرماً بنجاة التي كانت مفتونةً بغيره، وحين رآها ذات يوم وسألها عمن كانت تتحدث معه؟

تلكأت في الكلام فبدأ قائلاً:

لا تكذبي إني رأيتكما معاً

ودعي الدموع فقد كرهت الأدمعَ!

فتقول المحبوبة بكل استهتار: إنها تصلح مطلع أغنية، ويكملها المسكين رجاء أن يمدّ حبل الوصل والود.

وحين غنتها نجاة قُتلت القصيدة الجميلة، لأنها كانت تنتقم منه في كل بيت، وكادت القصيدة أن تُنسى؛ حتى تداركها عبد الحليم فبعث بها الروح من جديد وجعلها على كل لسان...

إنهما يطوفان بالعالم العربي كل صباح، يخبرانك عن الفرق الفنية في المغرب كيف تحدو، ثم يعرجان على «ذكرى» رحمها الله وكيف كان صوت الأرض يهديها الألحان ويغني معها بعض الأحيان...

في «طربيات» ستعرف قصة «أغداً ألقاك»، وكيف طالبت الست أم كلثوم بإحضار السوداني النحيل «الهادي آدم» حتى تعرف كيف كتب رجل أسمر من جنوب الوادي كل ذلك الجمال...

وفي طربيات ستضحك من حديث المتصلين، وخاصة كبار السن حين يطلبون أغنية لعوض دوخي عفى عليها الدهر، ويسردون بعض الحكايا حولها، وستعرف عمق عبد السلام جاد الله وهو يختصر ميادة الحناوي بقوله: ميادة... الفنانة المحترمة التي لم يحترمها أحد!

لا أنسى تلك العجوز العراقيه التي اتصلت من البصرة لتطلب «عشرين عام» للحنين سعدون جابر، ولم ينته الطلب حتى بكت على الهواء مباشرة، ولا ذلك السبعيني المقيم بلندن منذ مطلع الثمانينات الذي غمرهما بالشكر والثناء العطر، أخبرهما أن برنامجهما أثير على قلبه، وأنه ينتظره كل صباح بوسط المهجر كما ينتظر غريب زيارة ضيف في صقيع الغربة، وحين لبى الأستاذ عبدالسلام جاد الله طلبه «مسافرين» للشجي ياس خضر، بكى وأبكى معه الفنانين المرهفين، والله وحده العالم كم من المستمعين بكى يومها لكمية الأشجان والذكريات تلك... حينها فقط فهمت لماذا كان مظفر النواب يردد بحزن قصيدته الرائعة «حزن لكن مو حزين»، وعرفت وقتها لماذا كانت أحلام مستغانمي تقول: أخبرني عن سبع أغنيات تحبها، وأعطيك نشرة تفصيلية عن حالتك العاطفية!

هل تدري دولة قطر عن كل ذاك الحنين الذي تبثه من أرضها الجميلة كل صباح؟

وهي تزوّد المواطن العربي البسيط ببعض المتع الجميلة في الحياة كـ«الجزيرة الرياضية» و«صوت الخليج»، وهما كافيان بعض الشيء وسط كل أخبار الدماء والقتلى حول العالم...

إننا نحب سهرتها الخاصة كل خميس، ونحب مزون الحكمة بصوت الأستاذ عبدالسلام جاد الله الذي توازي

اختياراته في ظني اختيارات جوال أدب التي تصلني كل مساء من موقع الساخر الجميل.

إنهم يذكرون دائماً اسم عبيد الشمري كمعدّ متميز، ولكنني أعرف بدرية محمد أيضاً وأشكرها على الدوام... إننا نشتاق جميعاً لذلك السعودي الجميل الأستاذ القامة عدنان الدخيل -شفاه الله- المولود في مكة المكرمة، والذي قاده قدره ليطل علينا من الخليج العربي عبر برنامجيه الرائعين «فيض المشاعر» و«صدى الوجدان».

أعلم أنه العيد الثامن لكم... وأود إخباركم بأن الخليج كان جميلاً في عين بدر شاكر السياب وهو يصيح به: «يا خليج»... لم يرجع الصدى يومها... ولكنه تأخر سنين ليعود محملاً بمزون الحكمة وطربيات عبر «صوت الخليج»... تلك التي تجعل الأثير أجمل وأعذب.

إذاعة «صوت الخليج» وأهلنا الطيبين في دوحة الخير:

كل عام وأنتم بخير...

ورود إلكترونية

ثورة الإعلام الجديد أحدثت نقلةً نوعيةً في تعاملنا مع الأخبار اليومية حولنا، فلم نعد ننتظر التاسعة مساء كي نستمع لمذيع الأخبار الذي اعتدنا وجهه يوماً بعد يوم، ولم نعد نميّز إن كان المقدم ضليعاً في اللغة أو سريع البديهة أو ننتظر مراسلاً معيناً لنتقاسم الضحكة على طريقته في نطق اسمه أو اسم المدينة التي يراسلنا منها في الختام...

ليست الأخبار وحدها، بل الموسيقى كذلك. فلم تعد هناك ذاكرة موسيقية تجمع الأجيال الجديدة كتلك التي كانت تجمع أباءهم، فقد كانت الشوارع تخلو من المارة حين تكون أم كلثوم على الموعد ليلة الخميس، وكانت الإشاعات تتسرب بعد نزول أغنية جديدة وتنشغل الصحف والأقلام في تأكيد القصة أو نفيها...

بل لم تعد المفردة الموسيقية تأخذ حقها في الانتشار والدعاية والسخرية حتى...

في ستينات القرن الماضي اشتهرت أغنية «لا خبر» للمطرب العراقي فاضل عواد، وكانت إذاعة بغداد تبثها مدار الساعة، حتى أن أحد رسامي الكاريكاتير الظرفاء آنذاك رسم كاريكاتيراً في إحدى الصحف العراقية لمذيع يفتتح برامج الإذاعة قائلاً عبر المايكروفون: أعزائي المستمعين هنا إذاعة «لا خبر»، بدلاً من قوله هنا إذاعة العراق!

لقد كان الناس يستغرقون في لحظاتهم فلا ينسون شيئاً من تفاصيل الوقت والحكايا...

ونحن ننتقل من محطة إخبارية لأخرى لثالثة، ومن أغنية لثانية لثالثة في ظرف دقائق معدودات، فكيف لخبر واحد أن يكون حديثنا طول اليوم ناهيك عن أسابيع، وكيف لاختيار واحد أن يتعتق ويمرّ على جيل كامل في ظل آلاف المغنّين ومئات الأغنيات في الأسبوع الواحد؟

الأعجب من هذا أن يصبح الجميع مراسلين لأحداثهم اليومية لحظة بلحظة، فالكثيرون يدوّنون يومياتهم على تويتر والفيسبوك والشبكات الاجتماعية، وقد يبيعون متعة الاستغراق في اللحظة الحالية بوهم تقاسم جمال الخبر مع الآخرين في الفضاء البعيد المجهول!

حتى الأطفال لم يسلموا من تشويش ذاكرتهم، فالطفل الذي كان يلعب الكرة في الحارة ويذهب للمناسبات العائلية أصبح يقارع أصدقاء افتراضيين على ألعاب الفيديو الموصولة بالإنترنت، ويلعب مع منافسين من دول بعيدة وقارات أخرى، بينما قد لا يعرف اسم ابن الجيران ولا مهاراته...

وقد يأتي العيد فتقتصر التهاني على رسائل قصيرة وكتابات على حائط الفيس بوك، ولا يملك الطرفان غير الابتسامات والورود الإلكترونية ناهيك عن الصناعية!

لي صديق يرفض أن يقتني ابنه جهاز الهاتف النقال حتى يتخرج من الثانوية العامة متعللاً بالحفاظ على حواس ابنه الخمس...

يزعم صديقي أن انشغال ابنه بالمحمول في هذه السن الصغيرة لن يترك له فرصة للتأمل في الألوان وجدران البيوت ومقابض الأبواب حوله، ولن يسأل يوماً عن اسم صوت الريح ولن يرحب بالربيع كما ينبغي!

قد يكون صديقي على صواب... وقد يكون ابنه قد ولد في زمان غير زمان والده!

كنا أول من فعلها... يا صديقي!

طالعت في مجلة القافلة (العدد 4 - أغسطس 2009) ملفاً رائعاً عن البريد وتطوره حول العالم للأستاذ هشام عودة، واعتمد البحث في مجمله على فكرة تطور الكتابة كرافد أساسي للرسالة وانتشار البريد ومكاتبه حول العالم.

لكن ماذا عن تلك المجتمعات الغارقة في الأمية، والتي لم يمسك بنوها القلم إلا على كبر... أو في المهجر بعيداً عن الوطن الذي لا يكتب أحد إليه منهم، مع اعترافنا الكامل بأن فكرة الرسالة على اختلاف أشكالها ما هي إلا وسيلة لإيصال المعلومات أو المشاعر بين بني البشر بعيداً عن مستوياتهم الثقافية والعلمية.

لذا فإننا يجب أن نستعرض الطرق الأخرى غير الكتابة لإرسال الرسائل بين البشر.

في الصومال حيث مازالت مستويات الأمية تراوح بين 65 و 75% منذ العام 1960 حتى 1992، فإن قصة البريد لم تزل

في صفحتها الأولى... وطويت تقريباً منذ اندلاع الحرب الأهلية عام 1992... فكيف كانت الأخبار تصل بين الأمهات والأبناء، وبين الأصدقاء، بل وبين العشاق الذين فرقتهم الحرب وشتتهم المنافي؟

فالطرق مسدودة، وبياض الورق لطخه رصاص الإخوة الأعداء. فكيف يمكن لساعي البريد -بزيّه الأنيق- التنقل بسلام حاملاً رسائله الممهورة بالطوابع والأختام من الخارج وبحنين الأمهات وقُبل العشاق وآهاتهم من الداخل؟!

وحتى لو وصلت الرسالة -جدلاً- فمن يتكفل بقراءة الطلاسم المتعبة على بياض الورق؟

الفن الوحيد الذي برع فيه الصوماليون بناءً على جذورهم العربية وجغرافيتهم الأفريقية كان السرد وفن الكلمة التي تصل إلى المتلقي فيفهمها مباشرةً... كما يبتسم القارئ عندما يتعثر بعلامة الدهشة والتعجب عند آخر السطر!

استبدل الناس قبل الحرب وبعدها الشريط الصوتي بالرسالة الورقية، لذا كان من الطبيعي أن يخلو بيت الصومالي من الأقلام والأوراق، لكن يستحيل أن يغيب المسجل عن خيمته وسط الصحراء.

واستعاضوا بالستين دقيقة، والتي تطورت إلى تسعين على وجهي الشريط، عن وجه الرسالة وقفاها... ثم جعلوا للشريط المرسل مقدمةً تبدأ بالبسملة والصلاة على سيد المرسلين ثم الدعاء بالصحة للمرسل إليه، ثم جسداً يرتكز عليه الشريط وفيه يتم إخباره بالمراد وحال الناس بعده مع التعريج على السؤال عن أخباره ومدد أو جديد جد بعده، وينتهي الشريط بفيض من الأشواق وأبيات من الشعر الصومالي القديم وبعض الوصايا التي درج عليها الأولون.

ولأن العناوين ضاعت بعد الحرب، فكثر النازحون والمهاجرون من الصومال إلى بقاع العالم، احتاج القوم إلى طريقة أسرع وأضمن للتواصل عن بعد، ولم يكن المنقذ هذه المرة سوى المذياع الذي تركه الإنجليز بعد الاستعمار، فقد درجت هيئة الإذاعة البريطانية على تخصيص الساعة الخامسة مساء من كل يوم للبث باللغة الصومالية التي يتكلمها أكثر من تسعة ملايين صومالي حول العالم.

وتحت ضغط الجماهير، خصصت الربع ساعة الأخيرة من ساعة البث للبحث عن المفقودين والتائهين ومن تقطعت بهم السبل، وطلب العون ممن يسمع اسم الشخص المطلوب لتبليغه عن العنوان الذي يتركه من يبحث عنه ويسأل عليه.

ولعل الطريقة نفسها أجدت مع الراونديين أيام حربهم الأهلية الأخيرة والتي قتل فيها أكثر من مليون شخص.

الجيل الجديد من صوماليي المهجر يتواجدون على الشبكة العنكبوتية بامتياز ويتحاورون في المنتديات ومجموعات التواصل على الفيس بوك... لكنهم لا يعرفون أنهم انتقلوا من الشريط الصوتي إلى فضاء الإنترنت الفسيح دون المرور على ساعي البريد!

املأ عينيك بالجميلات

إياك أن تحب امرأة مليحة...

املأ عينيك بالجميلات...

فالأولى تتسلل للروح، تتعتق كنقش سومري قديم، تسكنك بكل تفاصيلها... بالتفاتتها، بابتسامتها، بطبخها المليء بالأسرار والحكايا كمقطع من ابنة الحظ لإيزابيل الليندي...

الحنين إليها سيسكنك يوماً بعد يوم، وحين يكبر أطفالكما ستجلسان على عتبة بيتكم القديم تتبادلان كل الحكايا.

- وماذا عن الجميلات؟-

إنهن ثرثارات... نزقات... مغرورات في العموم... ويذبلن كلوحة فوال طائفي قديم!

ماذا عن سن الزواج المناسب... هل سمعت عن المعادلة الشهيرة:

سن الزوج ÷ 2 + 5 = عمر الزوجة المناسب؟

حقاً... ولكن ماذا عن تفكيك المعادلة يا صديقي؟!

***

سن الزوجة = سن الزوج ÷ 2 + 5

بضرب طرفي المعادلة في 2

إذاً

سن الزوج + 10 = 2 في الزوجة

بأخذ العامل المشترك للطرفين ونقل المجاهيل في طرف والأرقام في طرف:

سنة = 2 × 10

سنة = 20

وعليه يا صديقي... ابحث عن المرأة التي تستطيع أن تساوي سنتك الواحدة معها عشرين سنة مع غيرها... وحينها ستكون الحياة أجمل من غير كل المعادلات!.

***

جمعت كل أشيائي المبعثرة... زجاج السيارة المهشم لم يمنعني من البحث عن رخصتي القديمة...

شريط قديم للشنقيطي محمد... وجه واحد لأغنية أيظن... موعد العظام لركبة أمي...

وجدت كل الأشياء. كنت أبحث عن عطرها الذي أرسلته لي منذ ثلاثة شهور... لم يكن لائقاً بثيابي أبداً...

فقط... كنت أضعه على صدري حين أستيقظ صباحاً وأشرب الشاي... مع رطوبة الجو كان العطر يتسامى للأعلى... يتسلل لأنفي الصغير... يطرق باب الذاكرة والأمنيات... يجنب كل الروائح جانباً... ويحتل المكان!

كنت في عز الظهيرة أقابلها وجهاً لوجه... وعطراً بعطر... كنت ألمس وجهها وأحفظ ملامحها... تماماً... كعراقي يقابل أمه على الحدود!

وبعد لأي...

وجدت الزجاجة كاملة لم تمس... فقط... افتقدت غطاء العطر الجميل في موقع الحادث بعد شهر، قابلت صديقاً قديماً اتصل بي بعد أن وجد استمارة السيارة التي أرسلت للفناء...

أتيته... وجدت في يده بقايا عطرها... ناولني الغطاء... غطاء عطرها الأنيق... واستمارة منتهية الصلاحية!

***

ما هي الأماكن التي تنوي زيارتها في شهر العسل؟

سأكون حريصاً على حجز فندق بأربع نجوم في وسط بيروت... والصبح سيبقى شامخاً بصوت فيروز الذي لا يشيخ...

فطور خفيف، ومشي سائر اليوم في المساء: سأقرأ لها «عاجل من بريد الحلم»...

وإن ثملت... أتبعتها بـ«حان الآن موعد ابتسامتك»... وقبل أن يحين الظلام... سأحكي لها قصة عينيها كما فعل الجميل هاشم صديق:

عيناك بسّ

ومسكت قوس كمانتي

عيناك إذ تتألقان

عيناك من عسل المفاتن جرتان

عيناك من سور المحاسن آيتان

عيناك مثل صبيتين

عيناك أروع ماستين (هذا قليل)

عيناك أصدق كلمتين

عيناك أسعد لحظتين (هذا أقل)

عيناك أنضر روضتين

عيناك أجمل واحتين (ما قلت شيئاً)

عيناك أطهر بركتين من، البراءة

نزل الضياء ليستحم بها

فألقى عند ضفتها رداءه

الفتنة العسلية السمراء

والعسل المصفى والهناء

وهناك أغرق نفسه (عجز الخيال)

عيناك فوق تخيلي

فوق انطلاق يراعتي

فوق انفعال براعتي

عيناك فوق تأملي

ومضيت مأخوذاً وكنت قد اختفيت

من أنت؟ ما اسمك يا جميل؟

وكنت من أي الكواكب قد أتيت

وقد اختفيت...

***

ماذا عن التعدد... والأطفال... هل ستكتفي بزوجة واحدة وطفل واحد...

ما أجهلك؟

الخطوة الأهم هي أن تتزوج مبكراً جداً، أو أن تتأخر كثيراً... كثيراً جداً حتى تجد شريكة مناسبة.

تعلم يا صديقي أن الذين يفاجئون الحياة ويتزوجون قبل العشرين نادراً ما يفكرون بتكرار التجربة...

إنهم يغوصون في الخلفة حتى آذانهم... وتعركهم الحياة، فلا يستيقظون إلا على مشارف الخمسين... وحينها يكون الوفاء قد أضرم نيرانه بين الضلوع والحنايا!

كل الحذر من الخامسة والعشرين حتى الخامسة بعد الثلاثين يا صديقي...

يكون المال وفيراً وقتها، والعين لماحةً للجمال في كل الإناث، وكلهن ورود في بستان الحياة، فذيك فصيحة، وهذه ممشوقة القد والقوام، وتلك مزوحة، وهذه فلقة القمر، والخصر هناك قصة قصيرة... والليل ينام على كتف ذيك!

وتضيع بين جفون الحسن وعيون الغرام، وتتمنى لو أن كل نساء الدنيا ملكك، وتتوه... تتوه... ياصديقي... كملامح صيني على مدخل دائرة الجوازات والهجرة ببكين...!

القصص القصيرة

خطى عرجاء... في الغربة

لم يكن حيد إسماعيل جراح القلب الأفريقي الوحيد في القسم. كانوا يسمّونه صاحب الأصابع الذهبية وهم يتندرون بأن شرق أفريقيا منطقة لا علاقة لها بالأيدي أبداً... فالقارة السوداء أشبه ما تكون بعملاق ذي رجلين، اليسرى منهما قصيرة يغسلها في المحيط الهندي حيث الصومال... كينيا... تنزانيا، واليمنى منهما متضخمة كعضو مصاب بداء الفيل بترت كل أجزائه وبقي إصبعه الكبير مغروساً في اليابسة على هيئة رأس الرجاء الصالح...!

كلما زار الشتاء «تبوك» شمال العربية السعودية حيث يعمل، أحس بزمهرير الغربة. حليمة زوجته منذ عشرين عاماً كانت تعلم مدى ضعف زوجها أمام هذا الفصل العنيد، فكانت تتسلح بالزنجبيل والحليب مع العسل المصفى قبل قدومه بشهور...

كانت تضحك كلما سمعته يقول: لم نخلق لهذه الأجواء يا حليمة... الملابس التي أرتديها تكفي كل ممرضات القسم لأسبوع...

والدي في باديته وبين جماله كان يرتدي الوزار وقميصاً غارقاً في المربعات ويضع شالاً على كتفه الأيمن طول العام... أعترف بأن الجفاف كان ينال من نياقنا كل عام لكننا لم نكن نركع له يا حليمة!

إنه برد الغربة يدكّ عظامي دكّاً... خمسة وعشرون عاماً في مطارات الدنيا كافية للذبول...

الإحساس بصقيع البرد يتسلل من أطرافي السفلى يا حليمة... أقدامي لا تلامس الأرض حتى ارتجف برداً!

صدقيني، ميزانية الشرابات وحدها تكفي لكفالة يتيم وتعليمه هذا العام...!!!

تألمت حليمة حين أحست بلمزة العقم التي نكأ بها حيد جرحها القديم...

استرسل قائلاً: الجمعة طائرتي إلى أديس أبابا والسبت أكون بين جِمال والدي -رحمه الله-... ستبقين هنا لأسبوعين مع عائلة الدكتور عثمان ميرغني.

عينه تشبعت زرقة سماء وطنه الصومال لأسبوع، وروحه انتشت بإحساس المواطنة بين الأكواخ والرعاة القادمين من المجهول كل مساء... حتى النسر الأصلع على جوازه الأمريكي ما كان ليقاوم متعة التحليق هنا...

ثمانية أيام في البادية كانت كفيلةً لطرد كل فصول الشتاء داخله... أحس بروحه تستقر في داخله استقرار نقطة النون في بطن الوطن.

قبل الرحيل بيومين احتد النقاش في المقهى الذي يرتاده عصراً، متعته بالشاي المطعم بالقرفة لم تترك له مجالاً لتتبع مسارات النقاش الحامي، الرصاصة الأولى كانت كفيلةً بقلب كل الطاولات... الثالثة استقرت في رجله اليمنى...

الطريق إلى مستشفى أديس كان كفيلاً بتوقيع إقرار البتر...

نهار الجمعة: كان عثمان ميرغني وحليمة في صالة قدوم مطار تبوك الدولي، بينما كان حيد إسماعيل، جراح القلب الكبير، يهبط سلم الطائرة بطرف اصطناعي في رجله اليمنى... وشراب جديد في قدمه اليسرى...

عاد ليطأ غربته بعرجة فيها من ريح الوطن ودفء اغتيالاته... بينما شراب الغربة يستقر في رجله اليسرى... ليتقي به صقيع غربته... حتى حين.

موكنزي... وصحن الحساء!

لا شيء من الدنيا بأيدينا... فنحن أضعف مما نتصور، نستيقظ كل صباح بمئات الأفكار التي نحملها، ونعود آخر النهار متعبين على أسرتنا وعشرات الأفكار التي تحملنا تضحك منا!

كان من تلك الدولة الحبيسة في وسط القارة السمراء، ولا داعي لذكر ذلك فلا يمكن أن يكون هذا الاسم –موكنزي رودا هونقا– سوى لطفل ينتمي إلى قبيلة التوتسي العريقة...

ولا شيء أسوأ في الدنيا من أن تولد لعائلة أفريقية غارقة في الجهل لا تملك قوت يومها!

كان يوماً من أيام الله حين عاد من مدرسته الفرنسية ليجد أن الهوتو قد وصلوا إلى بيته في طرف القرية وأبادوا كل العائلة...

ما أتعس المساء حين يستقبلك خاوي اليدين... لا تملك سوى بعض الفرنسية في فمك، وصحناً مقعر القاعدة، معكوف الطرفين في صف طويل يقف في نهايته عربي بلحية طويلة يوزع الحساء على الأيتام... ولا يحسن سوى الإنجليزية!

لم يكن من الصعب أن يعود موكنزي إلى توحيده في دار الأيتام تلك، فأغلب الأشياء في أفريقيا موحّدة، وجبات الطعام واحدة، أغلب الأنهار تصب في مصب واحد، الأشجار طول العام تمتد نحو السماء شكراً للإله الواحد، والرئيس لم يكن يحب المعارضين قبل الحرب، لذا كان رئيساً واحداً...

وبعد اغتياله، سادت الفوضى، فكره الناس رؤساء العصابات، واشتاقوا كثيراً إلى التوحيد!

الفوضى مفيدة كثيراً... حتى أن موكنزي –صاحب الستة عشر عاماً– جلس مع أقرانه لامتحان يعادل شهادته الثانوية التي لم يكملها.

كان مجموعه لا بأس به... لذا كان ضمن المسافرين إلى ليبيا التي تقبل كل عام 50 راوندياً مسلماً على نفقة الدولة، ويومها أسر في نفسه:

لقد كان القدر متحيزاً إلى جانبي وعليّ ألا أخذله، ماذا لو لم يمت والدي؟ لكنت ظهر يوم الأحد هذا متجهاً نحو الكنيسة

لإحياء القداس، وأبيع الماء آخر النهار... لأتعلم الفرنسية كل صباح!

لم يكن من المعتاد أن يتحدث الراوندي غير الفرنسية ولغته المحلية... لكن العربية كانت جواز مرور موكنزي ليصبح ملحقاً ثقافياً لبلده في الكويت...

ومنذ أن هبط المطار... والابتسامة لا تفارق وجهه المضيء كلما شاهد كويتياً بلحية طويلة... ليقينه بأن صحن الحساء مازال ساخناً في آخر الصف الطويل، على الأقل في ذاكرته المتعبة...!

روائح الموتى

الثانية عشرة على ساعتي، وكذلك على ساعاتكم وساعة مريضكم أيضاً، موعدنا في عنبر الدرن بعد نصف ساعة... تذكروا أن الطبيب النبيه هو من يقود مريضه في الحديث كي يصل إلى التشخيص في أقصر وقت ممكن... بالمناسبة هو أيضاً منهك من الداء والدواء فلا تكثرا...

محلول التعقيم يزكم الأنوف على طول الممر... والممر طويل بطول معاناة النائمين على الجانبين، في آخره على اليسار يعرف عنبر الدرن عن نفسه، غرفة واسعة نظيفة... تخال للوهلة الأولى أن عمال النظافة يمتحنون فيها للقبول...

الجميع ناحلون، بطونهم ضامرة، لغة الجسد عندهم واضحة المفردات تبدأ كأن فرداً يتهددها بالاقتلاع. السكون يلف الأغلبية هنا، فنبرة الضحك غير معهودة والابتسامة تغتالها نوبات

السعال الحادة، وكأن الرئتين قد ضاقتا ذرعاً بالوجود نيابة عن باقي الأعضاء... وكفى بك داءً أن ترى الموت شافياً...!

في الثالثة والثلاثين، من دولة أفريقية مجاورة، يحسن العربية لأنه لاجئ قديم، لم يتعلم فامتهن حمل الطحين بالساعات، وساعات العمل تصل إلى الذروة حين تصل مساعدات الأمم المتحدة إلى اثنتي عشرة ساعة يومياً...

أعزب ومدخن، فالوحدة لا يحرقها مثل الكبريت، على استحياء تسنده ضحكة ساخرة يجيب قائلاً: ومن لا يشرب يا سيدي مساء الخميس، إنه آخر الأسبوع ويجب على المرء أن ينسى حتى يستقبل جمعته بذاكرة جديدة...

أليس كذلك يا دكتور؟... الكثير ممن يتشحون ببياض معاطفكم في النهار... يودعون أسابيعهم بمثل ما نودعه نحن معشر الحمالين... وان اختلفوا عنا في جودة المشروب ولغة الحوار...

الثانية عشرة وثلاثين دقيقة... الأستاذ قادم من بعيد، رتبت أفكاري وتلوت عليه الشكوى، ثم فصَلت فيها لأسند تشخيصي بالأدلة، ابتسم وقال: ألم تسأله عن عدد مرات زيارته لنا؟... سفيان ضيف قديم قدم العنبر، يزورنا زيارة المفتشين

الصحيين، يعرف عن مرضه أكثر مما تعرفان... التدخين والعمل الشاق وكوخه الصغير، أو إن أردتم تلطيف عباراتكم فقولوا معي: الجهل والفقر والعادات الضارة انتهوا منه...

هل سألتموه عن الجرعات الدوائية؟ لا يا أستاذ فالوقت لم يسعفنا... إذاً يؤسفني إخباركم أن جرثومة الدرن اللعينة انتهت من رئتيه... وأسوأ من ذلك أنها اكتسبت مقاومة للدواء فلم يعد مجدياً مع سفيان...

نحن الآن نزيد من لحظات حياته بعلاجات تصبيرية -إن صح التعبير- لكن جسده منهك لم يبقَ فيه شيء، حتى معدته لم تسلم من انتشار المرض... آخر الفحوصات تتحدث عن إصابة دماغية إن لم يسعفنا القدر...

بعيداً عن الطب: ألم يغركم بريق عينيه بشيء؟...

أمرّتْ عليكم رائحة جسده مرور الكرام؟...

ألم تحدثكم أنفاسه العميقة بشيء؟...

إن رائحة الموتى كانت تفيض منه يا أبنائي!

بعد يومين: قدمت عربة مساعدات غذائية إلى المشفى... ترجل منها عشرون رجلاً أشبه ما تكون أعوادهم بسفيان... حملوا

جسده النحيل وركنوه بصمت في الخلف... انطلقوا ورائحة الموتى تملأ المكان...

شاي العصريات

كثيراً ما أخبر زوجته العقيم:

حتى لو كنا غرباء... يجب أن نحتفظ بلوننا الخاص... إن أجمل الأشياء هي تلك التفاصيل الصغيرة التي تفصلنا وتميزنا عن الآخرين...

الثلاثون سنة الأخيرة قضى نصفها المسائي متربعاً في زاوية الحارة... متقاسماً المكان والزمان مع أصدقاء العمر... متفقاً معهم في كل شيء سوى في دلته الممتلئة شاياً وحليباً وقبلهما سكراً وسكراً وسكراً!

في السنين الأولى كثيراً ما عاتبه أبو فليح:

ألا تعجبك قهوتنا يا بوسعيد؟!

ياخي والله لو على السكر نملاها لك يا خيي...

كان أبو سعيد يبتسم ليقينه أن هذا السعودي الشمالي وسيع الصدر وروحه ألطف من نسيم الشمال... وأنه يمرض -كرماً- في الأيام التي تكون القهوة عند/على غيره...

- هذا الهيل لا يساوي شيئاً في بلادنا... نعبئه ونكدسه في الميناء فإن اتجه شمالاً وإلا أضفناه كإخوانه من المكسرات في تشكيل حلوتنا الوطنية!

يحمس أبو فليح قهوته ذاراً بعض الزعفران ليضحك أبو سمحان قائلاً:

- الهيل والكيف مالكم فيه... وش انت لاقي في هالشاي حليب... تقول قايمن من النوم؟!

نبرة الصوت تحتد كلما اتجهنا صوب العاصمة... فتلك الهضبة المدعوة «نجداً» يجلس عليها الحاكمون ويطلون على الدنيا منها!

- الشاي يا بو سمحان مشروب عالمي نشره الإنجليز بعد استعمارهم للهند ومنها انتقل إلى كل الدنيا... والناس في بلدي يعشقون الحليب -اعتماداً على ثقافتهم الرعوية- فيقدمونه مع كل شيء...

ولعل الشاي كونه المشروب الأساسي كان أول الضحايا... بدأ بممارسته -الشاي بالحليب- علية القوم كوجاهة اجتماعية، وعندما شاركهم الفقراء ارتفعت وتيرة التحدي وبدأ التفكير بوسيلة ترهقهم مادياً لئلا يختل السلم الاجتماعي عند القبيلة -على الأقل- في تقديم الشاي!

وحينها كان العالم يتفاهم بالذهب الأبيض -السكّر- فلم يجد القوم أغلى منه عملةً لتصفية الفقراء ولفض هذا التداخل الاجتماعي...

أصبحت المعادلة كالتالي:

شاي+ حليب+ الكثير من السكر= رجل كريم وغني جداً...

الجميع التفت إلى أبي راشد -موظف شركة البترول الراقي والهادئ جداً- وهو يضحك بقوة:

- لك الله يا بو سعيد... ذكرتني بقريتنا شرق الأحساء، فعندما يفيض التمر تبدأ الممارسات الغير شرعية لتصريفه... تخيل أننا أدمنا التمر مع الأرز لفترة طويلة وكنا نمارسها بيننا حتى وجدنا -بعد توظيفنا في الشركة- أن أغلب أبناء الوطن يمارسونها في غرفهم... ويوم أن أعلناها، جاهر بها الجميع وغدت عرفاً اجتماعياً لا يستنكره إلا الأقليات والمتخلفون!

مضى وقت طويل على الجلسة العتيقة... لم يتغير الكثير، غير أن الدلال كانت تتجاور بكل سلام، اثنتان يحضرها من عليه الدور... ودلة أبو سعيد يحضرها معه...

كانت جلسة ككل الجلسات... غير أن أبا سالم، وهو رجل من أقصى الجنوب، فاجأ الجميع يوم قهوته بأن صف القهوة والشاي ومعهما دلة ثالثة تزبد حليباً مذهباً بالشاي...

ركن أبو سعيد دلته القديمة وبدأ بدلة أبي سالم إكراماً لمسعاه...

- من يد ما نعدمها، ولا تمسها النار...

كانت كفيلةً بإضحاك سن أم سالم خلف الستارة الرمادية... وإغراء كل نساء الحي بجعل الدلال ثلاثاً مقابل دعوة من هذا العقيم الصالح.

في يوم وفاة أبي سعيد اختلف رواد الزاوية هل يدفنون دلته معه؟!

أم يسلمونها إلى أقربائه الذين كانت تفوح منهم رائحة القهوة أكثر من الشاي حليب! أبو فؤاد أكثر الحجازيين ظرفاً أصر على أن ترثها «الدكة» على حد تعبيره...

وافق الجميع على اتفاق ضمني يصر على إبقاء السكر «خارج الدلة» لظروف مرض السكري والذي داهمهم من كثر ما ارتشفوا الشاي حليب المشبع سكراً وسكراً وسكراً...

رحم الله أبا سعيد...

أتت هند... وتفاح الجنة

كانت شامية فرعاء، من مواليد برج الدلو... وكان ذلك في نظرها فأل خير ومرسول سلام من الأقدار، لذا ارتأت أن تغطي جمالها بحجاب كامل لا يبدي سوى ناظرها للعيان...

حسام أخوها العائد من دراسة الصيدلة في اليمن كان كفيلاً بإقناع والدها بجدوى دراستها للاقتصاد هناك...

وكان صباحاً مختلفاً حين هبطت صنعاء... كان الجو بارداً... لطيف النسيم...

الشعب اليمني القصير يغدو إلى حاجاته بخطى متسارعة، لم تكن تفهم سرعة الناس وعجلتهم في الأشياء هنا.

صنعاء مدينة نابضة بالحياة، جنى عليها البردوني حين اختزلها بقوله:

مليحة عاشقاها السل والجرب!

كان يسحرها أن تفتح نافذة شقتها بعد صلاة الفجر مباشرةً... نسيم الصبا كان يبدو أصفى في المرتفعات، كان من لطفه أن لا يكتفي بتحريك خصلات شعرها فقط، بل كان ينقل لها عزف حمود جارهم في نفس البناية كل صباح.

وعندما تستيقظ صاحباتها في السادسة كانت تخبرهم بأنه لا شيء يوازي تساقط الرذاذ على وجهك وصوت عود صنعاني يلامس شغاف روحك على الصباح.

في الدراسة الجامعية كانت دائماً في المنطقة الدافئة، وكان شعارها: «السلامة لا يعادلها شيء»... لم تكن من البارزين وكانت تأنف من إعادة دراسة مقرر في الصيف...

لكن أستاذ الإحصاء كان رجلاً «أحمر» على حد وصف الإسلاميين في الجامعة، وكان يسخر من إمكانية تغيير اقتصاد العالم على يد طالبة محجبة في الظروف العادية، فكيف يستقيم ذلك والحياة كلها مادة!

- اسمعيني يا فاطمة... في جامعتنا لا يوجد سوى سبعة راسبين عداك في مادة الإحصاء، عليكم الالتحاق بجامعة «تعز»... ذلك هو الحل الوحيد في نظري إن أردتم التخرج مع زملائكم في

الدفعة، ستكون إضافةً حقيقةً لطالبة سورية حين تزور تعز... الأشياء جميلة هناك.

هكذا قال منصر -مسجل الكلية في حينها- وتذكرت في الحال تصنيف أخيها حسام:

«الصنعانيون أهل تجارة، والعدنيون أهل حضارة، أما في تعز -ديار العز- فإنك ستجدين نفسك سعيدةً لا محالة، بساطة الناس وحبهم للثقافة شيء يميزهم عن كل أهل اليمن».

ربما لم يكن صيف 1994 على وفاق مع برج الدلو، اشتدت معارك الانفصال في اليمن وعلق الناس في المشاكل...

تمخضت الحرب عن نازحين بالآلاف، أهل تعز المرتبون في ملابسهم كان يسهل تمييزهم عن إفرازات الحرب البشرية.

«القرويون مزعجون وكريهون جداً يا فاطمة، لا يملكون شيئاً من صراحة البدوي وأصالته، ولا يرتقون أبداً إلى حضارة أهل المدن، أياً كانت حضارتهم، بئيس أن تظل معلقاً في منتصف الطريقة بينهما!».

هكذا قالت سعاد محمد، صديقتها التعزية ذات الحس الاجتماعي العالي.

في المساء ثرثرة النساء تطال كل شيء، لكن دهشة فاطمة كانت عاليةً جداً حين تكلمت إحداهن عن يد البقال التي امتدت إلى صدرها خلسةً، والضحكات تعالت بينما احمرت خدود هدى فجأة!

مسكينة هي هدى... البارحة في طريق عودتها من الجامعة استقلت حافلةً مزدحمةً جداً، والتصاق الجينز بجسدها تحت العباءة أفقدها الإحساس بيد القروي التي استقرت عليها طوال الرحلة!

سعاد تكلمت عن نظرات القرويين التي تخترق أجساد الفتيات اختراقاً... وكانت تبتسم وهي تستحضر شواهد من الغناء اليمني المعروف بفحشه في وصف جسد المرأة وصفاً دقيقاً حد الضحك.

أستاذة الأدب الإنجليزي أخبرتهم عن أسطورة تفاح الجنة الذي سرقته المرأة من الجنة، وركزته في صدرها، وبدأت تتبختر به حال نزولها إلى الأرض مباشرةً!

سعاد محمد بكل جرأة سألت الأستاذة: وهل تفاح الجنة مبرر كاف لعنف هؤلاء القرويين؟

أخشى أن يكون هؤلاء الأوغاد أوصياء على فواكه الجنة يا أستاذة!

ضجت القاعة بالضحك، بينما استرسلت الأستاذة قائلةً:

كل الرجال قرويون يا سعاد حين نتكلم عن هذه النقطة، فقط الجهلاء يحاولون الوصول إلى تفاح الجنة مباشرةً، بينما المثقفون –كعادتهم- يحبون الاحتياط والسلامة بما في ذلك الكثير من الكلام المليء بحروف الاستدراك والتأني... لا أدري لماذا يذكرني وجه المثقف العربي دائماً بحرف -لكن- في اللغة العربية!

قاتل الله سيبويه... ذبحته «حتى»... فاستقلت «لكن» بنصف إرث العربية بعده!

كان فصلاً دراسياً لا يُنسى، تذكرت نظرتها القوية تجاه القروي الذي نظر إليها وابتسم بخبث، ارتبك حين وقعت عينه على عينها وحين أدرك أنه على مرمى كلمة قاسية... غنى بصوت عال لأيوب طارش:

باعدو عن طريقنا...

الإحساس العالي بالكلمة المغناة عند اليمني، يصحبها ذهن وقّاد وبديهة عجيبة، كان يكفي أن يقول المرء كلمةً من طرف أغنية حتى يضحك الشارع كله.

في طريق العودة إلى صنعاء كانت الخضرة تحف الشارع من الجهتين، وصوت عبدالرب إدريس يتهادى من المذياع القديم وبيده العود الصنعاني:

أتت هند تشكو إلى أمها...

تذكرت مباشرةً حديث سعاد محمد عن اللغة الفاضحة في الشعر الغنائي لأهل اليمن.

مرت سنون صنعاء كجلسة عود صباحية... وبعد عودتها إلى حلب الشهباء كانت ابتسامة فاضحة تستقر على وجهها حين تخبر أحدهم عن مصدر شهادتها الجامعية، فحين تقول: من اليمن.

كان الطرف الآخر يقول مباشرةً: اليمن السعيد؟!

ولم تكن فاطمة سوى الحلبية الوحيدة من مواليد برج الدلو التي تعرف أن سعادة أهل اليمن مقرونة بإعادة تفاح الجنة المسروق إلى مكانه!

مأتم... في تاروت!

لم تكن قطيعته مع التاريخ معلنة، فقط كان يزعجه العشى الليلي الذي ابتليت به ربة المنزل الذي كان يأويهم في ويلز...

فلا يعقل أن يقضي الليل كله في مناقشة هاشم زميله الإيراني الذي يتقاسم معه الدور الثاني، ثم يصبح الصباح فتناديه مسز سميث: هاشم... لا تتأخر ففطورك جاهز!

هارون الجاسم، السنّي المبتعث لدراسة التاريخ من جامعة الملك سعود بالرياض يعرف جيداً الفرق بين السنّي والشيعي، فمسقط رأسه تاروت، جزيرة حالمة على الخليج العربي، يهواها الليل وتغار منها الشمس، فلا تشرق عليها إلا بعد أن تزور «دارين» و«سنابس» فتكتمل رحلة الضوء إلى جزر اللؤلؤ والمحار...

عاد من ويلز في خريف 1964، يتأبط شهادة الماجستير في التاريخ، وبداخله قناعة كبيرة بأن العالم كله مصاب بالعشى

تجاهنا، فمسز سميث هي أوروبا، ومامادو السنغالي كان يضحك عندما يسرد له الفرق بين العربي والفارسي... حتى الأتراك كان مامادو يسميهم عرباً غاضبين!

سولي الكورية أخبرته بأن سليم الجزائري يشبهه ولولا شجة في حاجبه لنادته بـ«هارون»!

عاد إلى تاروت كمدير لثانويتها الوحيدة، أول ما أزعجه كان المآتم الشيعية على طول العام، أحزنه غياب الطلاب المتكرر قبل المأتم وبعده.

وكانت الفكرة السنّية القديمة تسكنه:

- هؤلاء المبتدعة: إما حمير كد لا تحسن سوى الزراعة، وإما شياطين ذكاء تقرأ أفكارك قبل أن تفكر فيها!

كم كان يضحك في سره من التهم المتبادلة بين كل خصوم العالم...

والحق يقال إن شفيق والأمين كانا عقليتين فذتين بشهادة كل المعلمين، وكان هارون يأمل أن ينال بهما جائزة الدولة التقديرية، لا لشيء ولكن ليعلم أبناء الوطن أن تاروت تملك شيئاً غير اللؤلؤ والمحار!

- من السبت القادم ستكون الحصص العلمية هي الأولى والثانية والثالثة... بعد الفسحة يمكن للطلاب الشيعة العودة إلى مآتمهم على أن يحضروا لنا من طعامهم لنتقاسم معهم البركة...

بهذا خطب ود عقلاء الشيعة لسنين، وحافظ على شفيق والأمين وكثير من الأذكياء الذين كان غيابهم يتعبه كثيراً...

شيوخ السنّة رأوا في موقفه الكثير من التخاذل، فلا يمكن لنا تقديم كل هذه التنازلات من أجل أئمتهم المزعومين، وفاحت بعض الإشاعات التي تقول بأن هارون قد تبين أحقية علي -كرم الله وجهه- في الإمامة فتشيّع!

وصُدم القوم عندما سمعوا كلمةً ارتجلها بعد أن توسط في حل خصام بين طلاب من سنّة «دارين» وبعضٍ من شبان «سنابس» الشيعية...

وبخ الحاضرين بصوته الجهوري ثم استشهد بقول زوربا:

«إن أكبر نبي لا يمكنه أن يعطي للبشرية إلا كلمة أمر، وكلما كانت كلمة الأمر غير دقيقة، كان النبي أعظم...!».

هال القوم ما سمعوه. عاد السنّة إلى أمهات كتبهم فلم يجدوا المقولة عندهم، واستنجد الشيعة بالكليني والملالي وقلبوا

كل مقولات أبي تراب... فعادوا بخفي حنين!

في الحصة الرابعة من اليوم التالي: كان الشيعة في الطريق إلى مآتمهم، والطلاب السنّة يراجعون نصوص ابن عبد الوهاب... ورصاصة غادرة تسكن صدر هارون الجاسم في مكتبه.

تحريات الشرطة لم تثبت شيئاً سوى سطور استعصت على الدم فبقيت واضحة بخط هارون في وصيته التي كان يحملها دائماً:

«أرجو أن يصلّى علي في جامع ابن القيم للسنّة، وأن أدفن في مقابر إخواني الشيعة، فالمرء لا يُسأل يوم القيامة عن مذهب جاره في المقبرة...!».

لعنة الجنوب

.

يعيش في هذه المدينة صنفان من البشر:

الذين ولدوا فيها... والذين جاؤوها هرباً من شيء آخر... وأنا لم أولد فيها!

عندما انتابته نوبة الحمى وبدأ يعرق ليلاً حمله سائق الشاحنة المساعد إلى أقرب مستوصف على كتف الطريق...

قابله الطبيب وسأله عن مكان ميلاده... لم يجاوب لكنه كشف عن أعلى ذراعه اليمنى ليريه أن تطعيم الدرن مختوم عليها...

«ميري» الايطالية الفرعاء... وجيب اللاند الأبيض الموشم بالصليب كيف ينساه... كان طفلاً حافياً كبقية الأطفال وكبقية أيام القرية الهادئة...

بعض الأيام تمر هادئةً حافيةً أمامنا...

هكذا هم الحفاة، مسرعون دائماً خطاهم متشابهة، لم يعرف الأيام الرتيبة والمنتعلة إلا بعد أن جاع في اليمن... لفظه البحر الأحمر كأبٍ يطرد ابنه العاق ويحذره من تخطي عقبة الدار مجدداً!

لم يعد باستطاعته تصديق كذبة «الأوطان كالأمهات»... الوطن في أفريقيا عمٌّ يرث أمك كما يرث من أخيه أثاث البيت، ويظل متوجساً منك وكأنك هاشميٌّ في المنفى... يوشك أن يعود!

عندما تعدى نجران ودخل الأراضي السعودية، أتعبه تمرد الحروف على خط الحدود... القاف الصريح جنوب الحد استحال كافاً مسخاً في شماله...

خشي من تشوه باقي الحروف العربية على امتداد الطريق شمالاً...

كم يلزمه ليصل إلى الخرج والتي لا يعرف عنها شيئاً سوى أنها تقع على بعد ثمانين كيلومتراً جنوب الرياض...

حين أخبره ابن عمه المقيم فيها عنها هذه المعلومة الغير مفيدة... أسر الضحكة في داخله واحتفظ بهذا التعليق لنفسه:

ألا يدري هذا الغبي أني ودعت الجنوب منذ شهر... لم أعد ألتفت إليه... جهاتي غدت ثلاثاً لا أربعاً... لم يعد يعنيني هذا الجنوب بعد اليوم في شيء...!

لعنة الجنوب لحقته في اليوم التالي... حمىً شديدة وتعرق يزداد مع اقتراب الفجر... الهذيان لم يفضحه أمام الآخرين، فكان يهذي بلغته الأم والتي لا تلتقي مع العربية سوى في الأسماء...

شكله كان مألوفاً لدى طبيب الخط... فالعابرون تفضحهم روائحهم... ملابسهم... حتى أحذيتهم المتهالكة... لو نطق المرض لأخبر طبيبه أن لكل جهةٍ أمراضاً تخصها... وأن هذا من بقايا الجنوب في دمه!

فحصه على عجل... وقبل أن يسأله... استبق الجواب قائلاً:

يعيش في هذه المدينة صنفان من البشر...

الذين ولدوا فيها... والذين جاؤوها هرباً من شيء آخر... وأنا لم أولد فيها!

محمد ديريه

dermoh@hotmail.com

من إصدارات مدارك Madarek





















السيد علي الأمين
الأحزاب الدينية
السيد علي الأمين
ولاية الدولة
ودولة الفقيه
المرأة
والولاية العامة
حكاية اسمها
غازي القصيبي
كمال عبد القادر
تشيع العوام
وتشيع الخواص
السيد أحمد القبانجي
صورة أوروبا
في
الأدب العربي الحديث
من طه حسين إلى الطيب صالح
كنا في إسرائيل
رحلات مصرية
منذ 1948 وحتى 2006
أمريكا
في مرآة عربية
صورة أمريكا في أدب الرحلات العربي
1668 - 1995
أمريكا
في مرآة عربية
صورة أمريكا في أدب الرحلات العربي
ما بعد 11 سبتمبر 2001


تركي الدخيل
الدنيا... امرأة!


سلمان العودة
من السجن إلى التنوير
تركي الدخيل


تركي الدخيل
إنما نحن... جوقة العميان

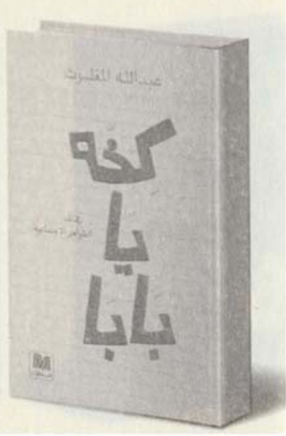

المجتمع
الأحسائي المعاصر
قراءة في طباعه وأفكاره


نازح من جازان
مفاجآت التمرد الحوثي
على الحدود السعودية
هادي فقيهي


تغطية العالم!
بدعة الإلزام بتغطية الوجه
أحمد السيد عطيف


خارجُ الطّائِفة
د. علي أحمد الديري


بيكاسو
وستاربكس
ياسر حارب
STARBUCKS
COFFEE


عبدالله المغلوث
كخه
يا
بابا


رشيد الخيّون
عمائم سود
بـ
القصر السعودي
انطباعات شخصية عن نجد والحجاز
تلخيص البيان
في ذكر
فرق أهل الأديان
رشيد الخيون
بعد إذن الفقيه
الحرام والحلال في أمر النساء
والطفولة والكتابة والطعام
رشيد الخيون
لا إسلام بلا مذاهب
و
طروس أخر من التراث
رشيد الخيّون
ضد الطائفية
العراق... جدل ما بعد نيسان 2003
رشيد الخيون
رسالة
في العلمانية والخلافة
رشيد الخيّون
جدل التنزيل
مع كتاب
خلق القرآن للجاحظ
رشيد الخيون
معتزلة
البصرة وبغداد
الحب والفراق
انه محمد عبده يماني



أعمدة الضحك السبعة
علي سالم
التطرف وثقافة السلام
علي سالم
الضحك في عز النكد
علي سالم
إذا كنت مسافراً خذني معك
علي سالم
بكالوريوس في حكم الشعوب
اعترافات زوج
علي سالم
دلال...
رحلة ألم وأمل وفراق

إلى كاراكاس... بلا عودة

لا يعرف الناس ما الذي يعنيه أن تصبح عربياً بعد السادسة من عمرك...

أن تأتي من شرق الجنوب، شرق القارة السمراء طفلاً أرمداً لا يبصر الطريق إلى بيت الخلاء كل صباح...

مهدداً بالموت ككل الأطفال الذين ماتوا في وطني جوعاً أو تيهاً سنة التسعين الميلادية...

مهدداً بالعمى كما أخبرَت الطبيبةُ أمي عندما أصافح الثامنة عشرة من عمري...

ثم تمضي الحياة...

نمارسها كما مارستنا لسنين...

ندّاً لندّ، وجهاً لوجه، عيناً لقلم، وأذناً لحرف.

هنا سرديات قرصان عربي... أطل على أحبابه من المحيط إلى الخليج ليخبرهم عنهم وعنه، وعن كل الذكريات والأماني.


ISBN 978-9953-566-48-1

